محاكم التفتيش الإسبانية

١٤٨٠-١٥١٦م

د. بشرى محمود الزوبعي

الجامعة المستنصرية

زهران للنشر

محاكم التفتيش الأسبانية

١٤٨٠-١٥١٦م

الدكتورة

بشرى محمود الزوبعي

الجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾

سورة الحج/ الآية (٣٩)

الإهداء

! إلى من . . . رفرفت روحه تشد من آزري

! إلى من . . . ساندني حنانه وحبه الدائم

! إلى من . . . لن أنساه أبداً

! إلى . . . روح والدي النبيلة

أهــدي ثمــرة جهــدي المتــواضع هذا

بشرى الزوبعي

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً لا يزول دائم الاقتبال، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين وعلى آله الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا بد لي وأنا أنتهي من إعداد هذه الكتاب أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى الأستاذ الدكتور صالح محمد العابد، لبالغ حرصه، وتوجيهاته القيمة ومتابعته المستمرة، ولما قدمه لي من جهد وعون في إتمام هذه الكتاب وإظهاره بشكله النهائي.

وحق لي أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى أساتذتي الفضلاء في قسم التاريخ – كلية الىداب – جامعة بغداد ممن كانوا لي مثالاً في عطائهم العلمي وتوجيهاتهم القيمة في أصول البحث العلمي ، وهم الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد، والأستاذ الدكتور هاشم صالح التكريتي، والأستاذ الدكتور إبراهيم خلف العبيدي، والأستاذ الدكتور علاء موسى نورس، والأستاذ الدكتور نوري عبد بخيت السامرائي، والأستاذ الدكتور صادق حسن السوداني، والدكتور عصام شريف التكريتي والأستاذ الدكتور رياض الحيدري.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأساتذة الأفاضل الذين زودوني بالمصادر وهم الأستاذ الدكتور محمد عبده حتاملة من الجامعة الأردنية، والدكتورة باهرة محمد من الجامعة الأسبانية في مدريد، والأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي من تونس، وإلى الأخوة الذين ساهموا في ترجمة بعض النصوص الأجنبية وهم محمود عبد الواحد القيسي، وفليح عبد الزهرة، ورياض مهدي جاسم.

ولا يفوتني أن أقدم شكري للأستاذ الدكتور فخري الحديثي في كلية القانون، والأستاذ الدكتور صادق الحلو رئيس قسم التاريخ في كلية التربية جامعة بغداد، والأستاذ الدكتور يقظان سعدون،، والدكتور أسعد محمد زيدان لما أبدوه من تعاطف ومشورة قيمة.

كما أقد شكري وحبي الكبير إلى عائلتي الكريمة، واخص منهم أخي المحب شاكر، لما أحاطوني به من حب ورعاية طيلة مدة إعداد الكتاب.

كما أوجه شكري وتقديري إلى منتسبي كل من مكتبة كلية الآداب، ومكتبتي الدراسات العليا وقسم التاريخ في كلية الآداب، والمكتبة المركزية بجامعة بغداد، ومكتبة وزارة الخارجية، والمكتبة الوطنية في بغداد ، ومكتبة المتحف، ومكتبة قسم اللغة الأسبانية في كلية اللغات، ومكتبة قسم التاريخ في كلية التربية، ومكتبة المجمع العلمي العراقي، والسفارة الأسبانية في بغداد.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة..	11
الفصل الأول: أصول محاكم التفتيش................	17
محاكم التفتيش في أوائل العصور الوسطى............	18
ضمور دور محاكم التفتيش في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.	33
محاكم التفتيش الأسبانية..............	37
عوامل نشوئها..	37
اتحاد مملكتي أرغون **Argon** وقشتالة **Castille**	44
الفصل الثاني: تأسيس محكمة التفتيش الأسبانية..........	53
وصف بناء المحكمة..	57
وصف السجون	59
هيكلية المحكمة:	67
المفتش العام..	67
المفتش..	70
المدعي	72
كاتب الضبط	72
المخبرون	73
رئيس الشرطة	74

الخبير 75
الموظفون الآخرون 76
النظام المالي 78
الفصل الثالث : إجراءات محكمة التفتيش 81
أ- توجيه الاتهام................................ 83
بداية القضية بتوجيه الاتهام 83
بداية القضية واسطة التبليغ 85
بداية القضية بالتحقيق 86
استجواب المتهم 89
الشهود 92
وسائل التعذيب 94
الدفاع 101
احتفالية موكب الحريق 104
الخاتمة 119
الملاحق 123
المصادر والمراجع................................ 131
الملخص باللغة الإنجليزية ....

المقدمة

من خلال دراستي لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة، استوقفني موضوع محاكم التفتيش، الأداة القسرية لمحاربة الفكر الإنساني، ومحق التوجهات العلمية التي رافقت انتقال أوروبا من عصورها المظلمة إلى مشارف العصر الحديث، بكل ما يحمله من تغييرات جذرية مست جوهر الحياة الإنسانية.

ومن قراءاتي المتواضعة للموضوع، وجدت أن تلك المحاكم بكل ما اتصفت به من عسف، تتضاءل في هجميتها، مقارنة بالمحاكم الأسبانية. ودفعني ذلك إلى محاولة تتبع نشوء تلك المحاكم، ودراسة إجراءاتها في مرحلة تكوينها. وتوافرت لدي، في المكتبات المحلية، وعبر مراسلاتي الخارجية مع المهتمين بالموضوع، مادة مناسبة شجعتني على خوض التجربة بدراسة موضوعية بعيدة عن التحيز والمبالغة.

وقد قسمت البحث على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. درس الفصل الأول أصول محاكم التفتيش والدوافع التي أدت إلى نشوئها، حيث كانت الكنيسة تعاقب كل من يدعو إلى أفكار تناهض أفكارها، ولا سيما تلك التي تدعو إلى الرجوع إلى الأصول الأولى للمسيحية ببساطتها ووضوحها، وكذلك التي تندد بما وصل إليه رجال الدين الكبار في سعيهم المادي للتمتع بالحياة الدنيوية.

وقد سلط الفصل الضوء على أهم تلك الأفكار كما تطرق إلى أهم القوانين التي أدت إلى تبلور تعاليم محاكم التفتيش البابوية، وأسباب نشوئها في مملكة أرغون، ومن ثم اتحاد كل من مملكتي أرغون وقشتالة، ودوافع الملكين: فرديناند وايزابيلا في تأسيس محاكم التفتيش الأسبانية، وفي مقدمتها الرغبة في تحقيق وحدة قومية أداتها الكنيسة، وإقامة حكم مطلق عد فيه العرب (الموركسيين) واليهود (المارانوس)

خارجين على الكنيسة وبالتالي على الوطن ، ولذا يجب إيقاع أقصى العقوبات بهم تمهيداً لإخراجهم، استكمالاً لوحدة أسبانيا دينياً.

وكرس الفصل الثاني لدراسة النظام الإداري والمالي لمحكمة التفتيش منذ بدايتها في اشبيلية، وتتبع فروعها في أنحاء أسبانيا الأخرى. إلى جانب دراسة للشخصيات الرئيسية التي تبوأت منصب المفتش العام في مرحلة التأسيس، وأهم الواجبات والامتيازات التي تمتعوا بها، كما تطرق الفصل إلى وصف عام لبناء المحاكم وسجونها، ومواقع التحقيق.

أما الفصل الثالث فبحث إجراءات المحكمة – منذ القبض على المتهم حتى إصدار الحكم عليه – والأساليب والممارسات التي طبقت بحقه وصولاً إلى اعترافه بما تمليه عليه المحكمة. كما لم يغفل الفصل عرض وسائل التعذيب المستخدمة أثناء عملية الاستجواب، إلى جانب نظرة سريعة على حالة السجناء داخل السجون، ووصف مواكب الإعدام والاحتفالات الجماهيرية المرافقة لعمليات الإحراق.

ولا يخلو أي بحث أكاديمي من صعوبات، أهمها ندرة المصادر المتخصصة في الموضوع، وجلها باللغات الأجنبية، حيث تفتقر مكتباتنا إلى معظمها. وقد حاولت أن أسد هذه الثغرة بمراسلة شخصيات أكاديمية في الخارج ومكتبات كبيرة في لندن وأسبانيا. وقد استجاب لندائي عدد لا بأس به، فتوافرت لدي مادة شجعتني على إنجاز البحث.

وكان أمر ترجمة تلك الكتب والبحوث عقبة كبرى، أمكنني تجاوزها بالاستعانة بعدد من المترجمين الجادين، وأمضيت أياماً طويلة وأنا أحاول أن أترجم بعض النصوص، أشعرتني ، رغم الإرهاق، براحة وفرح غامر من إنجازي.

أهم المصادر:

كان المتوقع أن تمدنا المصادر العربية بمعلومات وافية عن محاكم التفتيش في أسبانيا. فما كان من دراسة أحداث الدولة العربية في الأندلس في تلك الحقبة قليل مقارنة بالمصادر غير العربية لا سيما السنوات التي تلت سقوط غرناطة آخر المعاقل العربية سنة ١٤٩٢. وتركزت معلوماتنا على نحو خاص في أوضاع العرب المتنصرين.....الخ (الموريسكيين)، وأغفلت معالجة نشوء وتطور محكمة التفتيش الأسبانية للمدة ١٤٧٨-١٥١٦، ولم تتطرق بتفصيلات وافية لإجراءات وأساليب المحكمة ودورها في تصفية الوجود العربي في أسبانيا.

إن أهم المصادر العربية التي عالجت موضوع محاكم التفتيش البابوية والأسبانية، كتاب الدكتور اسحق عبيد : (مذابح وجرائم محاكم التفتيش)، ولكنه لم يكرس لمرحلة نشوء المحاكم الأسبانية واثرها إلا جانباً يسيراً. والكتاب الآخر المهم للسيد علي مظهر : (مذابح وجرائم محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وفرنسا)، وهو في الأصل مقالات نشرها المؤلف تباعاً وقام بجمعها ونشرها السيد علي قطب، وقد استفاد البحث في فصله الثالث من المعلومات القيمة التي ضمنها الكتاب عن أحوال المعتقلين في السجون وما عانوه من تعذيب وحشي.

وقد جاءت كتابات المؤرخ المعروف محمد عبد الله عنان وافية عن حال الموريسكيين، واتحاد كل من أرغون وقشتالة. ففي كتابه القيم (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) استعرض الوجود العربي في الأندلس حتى نهايته بسقوط غرناطة بأسلوب شيق وتحليل علمي فقد قدم صورة وافية أمدت البحث بالأساس الرصين لمعالجة الموضوع ، ولا يقل عنه أهمية، كتاب عنان الآخر: (ديوان التحقيق والمحاكمات

الكبرى) الذي زود الفصل الثالث بمعلومات مهمة فيما يخص إجراءات المحكمة، وأوضاع المتهمين، ووسائل الدفاع المتاحة لهم.

أما كتابي الباحث محمد عبده حتاملة : (محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة) و (التنصير القسري في عهد الملكين الكاثوليكيين ١٤٧٤-١٥١٦) فيحتلان أهمية خاصة في إلقاء الضوء على حالة العرب المورسكيين بعد سقوط غرناطة، وأمد البحث بمعلومات مهمة عن الوضع العام في أسبانيا ولا سيما أرغون وقشتالة.

وقد اعتمدت الدراسة على عدد كبير من المصادر غير العربية: الإنجليزية والأسبانية والفرنسية يأتي في مقدمتها كتاب **A History of the Inquisition of the Middle Ages** لمؤلفه **Henry Charles Lea** ، وهذا السفر القيم درس بتفصيل محاكم التفتيش في أوروبا منذ بدايات ظهورها حتى نهايتها في القرن التاسع عشر، ولا يمكن لباحث يتصدى لمرحلة ما، من أدوار المحكمة، إلا الرجوع إليه. ويلي كتاب (لي) في الأهمية كتاب **The Spanish Inquisition** لـ **Turberville** الذي أمدنا بمعلومات قيمة لا سيما في الجانب الإداري لمحاكم التفتيش الأسبانية.

ومن المصادر المهمة كتاب **The Spanish Inquisition** للمؤرخ **Cecil Roth** وأهميته مده لدراستنا بالجوانب المتعلقة بوسائل التعذيب وأساليب المحكمة التي أتبعها ضد المتهمين.

أما كتاب:

History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.
للمؤرخ **Prescott** فيعد من أهم المصادر المعتمدة لتاريخ أسبانيا في مرحلة نشوئها، وبواكير توسعها الاستعماري.

ومن أهم المصادر الفرنسية كتاب D`espagne: Lorente Histoire Critique وأهمية الكتاب أن مؤلفه كان على صلة مباشرة بمحاكم التفتيش من خلال عمله فيها وإطلاعه على وثائقها ووقائعها، فدون مشاهداته التي تعد لهذا السبب مصدراً موثقاً. وعلى الدرجة نفسها من الأهمية كتاب (Directorium Inquisitorum لمؤلفه Nicolau Eymarich فقد كان أحد محققي محكمة تفتيش أرغون وواضع المنهج الذي اعتمدته المحاكم الأسبانية في إجراءاتها، مقدماً في هذا الكتاب المبادىء التي ترشد المحقق في كل أفعاله. ولهذا ظل هذا الكتاب مرجعاً أساساً لكل المؤلفات التالية التي بحثت في تاريخ محاكم التفتيش، وقد أغنى هذا الكتاب الفصل الثالث من الرسالة.

ويأتي في مقدمة المصادر الأسبانية كتاب : Le Inquisition Dedieuالذي أثرى فصول الرسالة بالكثير من المعلومات القيمة. والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه أجيزت من جامعة مدريد في سنة ١٩٩٣. وقد سدت مباحثه الموثقة جانباً أساساً في دراستنا ولا سيما في الفصل الثاني في الجزء الخاص بالنظام الإداري والمالي لمحاكم التفتيش الأسبانية.في مرحلتها الأولى ؟، من الوضوح.

إن الخوض في هذا الموضوع المعقد الشائك محفوف بصعوبات جمة، ولم ندخر جهداً ووقتاً، في سبيل إظهاره بشكل علمي لائق، فعسى أن نكون قد وفقنا في الاقتراب من الهدف الذي نطمح إليه، فالكمال لله وحده ومنه نستمد العون والغفران.

الفصل الأول

أصول محاكم التفتيش

محاكم التفتيش في أوائل العصور الوسطى:

اتسعت شهرة محاكم التفتيش [1] الأسبانية منذ إنشائها على يد فرديناند وايزابيلا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، إلى حد مالت فيه إلى تغطية حقيقية إن هذه المحاكم كانت نشطة في العديد من الدول الأوروبية غير الأسبانية، وإنها كانت قائمة قبل القرن الخامس عشر بزمن طويل. ومع أن المحاكم الأسبانية اتصفت بسمات مميزة مؤسسة منفصلة عن سلطة البابوية ، ولكن من غير الممكن تقييم هذه الخصوصية دون الإشارة إلى محاكم التفتيش في الدول الأوروبية الأخرى في المرحلة التي سبقت إنشاء محاكم التفتيش الأسبانية [2] .

وقبل الخوض في الأسباب والظروف التي مهدت لقيام محاكم التفتيش في القرون الوسطى، لا بد من الإشارة إلى أن هذه المحاكم لم تبدأ في القرن الثاني عشر،

---

(1) محاكم التفتيش The Inquisitions : اصطلاح مشتق من كلمة لاتينية هي (Inquirer) ومعناها يتقصى، يبحث، يفتش.

عبد العظيم رمضان ،(محاكم التفتيش أسوأ استخدام لأسم الله)، مجلة العربي، العدد ٢٥٨، الكويت ١٩٨٠، ص ٢٤.

وهناك تسميات عديدة لمحاكم التفتيش: (ديوان التحقيق والديوان المقدس) ولكن التسمية الدقيقة هي الأولى لأن هذه المحاكم كانت تعتمد أسلوب البحث والتقصي والتفتيش عن المتهمين من خلال لوائح وقوانين تضعها الكنيسة التي تقوم بإرسال عدد من الرهبان والقسس للتجول والبحث عن المخالفين لفكر الكنيسة الكاثوليكية.

Grand Larouss Encyclopedique , Tom Sixieme , Paris 1962, P.222

(2) A.S. Turnersville , The Spanish Inquisition, London 1949 ,P.2.

كما يعتقد فجذور اضطهاد الفكر المخالف لعقيدة الكنيسة الكاثوليكية [1] ترجع إلى القرن الرابع. ففي سنة ٣٨٥م، قبض الإمبراطور ماكسيموس Maximus على المفكر الأسباني بريسيليان Priscillian [2] وأدين بسبب آرائه الغنوصية [3] وأعدم حرقاً مع عدد من أتباعه في مدينة تريف Treves.

---

(١) معنى الكاثوليكية: أي الشاملة أو الكونية وتدعى أم الكنائس ومعلمتها، هدفها نشر المسيحية في العالم، وسميت غربية أو لاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتين خاصة، أي إلى بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال ، وسميت بالكنيسة البطرسية أو الرسولية نسبة إلى مؤسسها الأول (بطرس الرسول كبير الحواريين، والبابوات في روما خلفاؤه، والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوي، يرأسه البابا يليه الكرادلة، وهم أصحاب السلطة في تنظيم الكنيسة،إذ يتكون منهم المجمع الكنسي الذي يصدر قرارات بابوية تعد قرارات إلهية لأن البابا هو نائب السيد المسيح على الأرض. وإرادته لا تقبل الجدل والمناقشة.

أحمد شلبي، مقارنة الأديان (المسيحية)، ط٣، مصر ١٩٦٧، ص ٢١٦.

(٢) بريسليان Priscillian: وهو مؤسس مذهب البريستليانية، ولد في مدينة منفس بمصر، نشر أفكاره في أسبانيا في حدود سنة ٣٧١، وأدين بسبب أفكاره سنة ٣٨٠ في مؤتمر سرقسطة، مع ذلك فقد استطاع بمساعدة اتباعه أن يصبح أسقفاً على أفيلا Avilla ونقل بعد ذلك إلى جنوب فرنسا سنة ٣٨٤، وتمكن أن ينتزعوا من الإمبراطور ماكسيموس أمراً يقضي بإعدامه حرقاً.

Dicconario Encyclopedia Salva TT. Q, Barcelona 1972, P. 2730.

(٣) الغنوصية Gnosticism، وهم جماعة اهتم أتباعها بروح الإنسان والإيمان بالثنائية، فهناك الروح والمادة، كما أن الخير والشر قديمان. وبينما يعتقد الغنوصيون في سرمدية الشر، ترى الكنيسة أن الشر لم يظهر إلا بعد طرد آدم من الجنة. وحياة الغنوصي حياة زهد، وهم ضد فكرة الزواج لأن الزواج لأن الزواج، برأيهم، متعة وشهوة.

اسحق عبيد، محاكم التفتيش نشأتها وتطورها، ط١، القاهرة ١٩٧٨، ص ٣٩.

واتسمت سياسة العديد من الاباطرة بمطاردة المخالفين رأي الكنيسة (٤) الذين نعتوا منذ ذلك الوقت بالهراطقة Heretics (٥) وابتداء من القرن الخامس شاع هذا اللفظ، وأطلق على كل الذين لا تتطابق أفكارهم مع عقيدة الكنيسة الكاثوليكية. وفي خلال هذا القرن طبقت قوانين ثيودسيوس الثاني – وبعدها قوانين جستنيان الذي لقب بـــ " المحقق الأول" – عقوبة الموت ضد أصناف معينة من الهرطقة حلاً أخيراً (٦) إلا أن الهرطقة لم تشكل خطراً كبيراً على الكنيسة قبل القرن الحادي عشر، لأنها اقتصرت على عدد محدود من كتابات المفكرين المؤمنين بها، فضلاً عن قلة عدد المؤمنين بها من مجموعات غير منتظمة قد تحدث اضطراباً، متأثرة بالخطب الصاخبة من الهراطقة، حيث لم يكن من العسير على السلطة محقها بسهولة(٧) . لكن المشكلة برزت

---

(٤) أبرزهم الإمبراطور فالنتيان الأول (٣٦٤-٣٧٥م)، وثيودسيوس (٣٧٨-٣٨٥م) فقد كانا من أشهر الأباطرة مناصرة للكنيسة وأكثرهم قسوة على المخالفين لرأي يناويء الكنيسة الكاثوليكية. المصدر نفسه، ص ١٤.

(٥) الهرطقة Heresy : وهي الإنكار والشك في اعتقاد للإيمان الكاثوليكي. وقديماً كانت الكلمة تشير إلى الكلمة الإغريقية Alpe′ois تشير إلى الاختيار ومنها اشتقت الكلمة، واستخدمت في البداية لتعني أفكار المدرسة الفلسفية. أما الكنيسة الشرقية فقد ميزت بين الهرطقة الرسمية Formal والهرطقة المادية Material . والهرطقة الرسمية تعني التمسك الشديد والمستمر بخطأ في مسائل الإيمان ممن كان قد عمد، أما الهرطقة المادية تعني حمل معتقدات هرطقية.

F.H. Erass , rd. The Dictionary of the Christian Church, “Heresy” ,London ,rerp.1963,P.628.

(6) Cecil Rothe , The Spanish Inquisition ,London 1964 ,P.35.

(٧) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص ١٤.

في القرن الحادي عشر، وكان نذيرها انتشار الحركة الالبية [8] جنوب فرنسا. فقد ساد الاعتقاد بأن الهراطقة يقومون بإفساد الإيمان الضروري لحياة الروح، ولهذا فالموت هو العقوبة المناسبة [9] . وخلال هذا القرن، حصل تحول في مجتمع أوروبا الغربية أدى إلى تحقيق منجزات اجتماعية وثقافية في القرنين التاليين نتيجة للتطور الاقتصادي، وما رافقه من نهضة، تزامن ذلك مع تسرب الأفكار الحرة إلى الجماعات رغم قيود الكنيسة، وضحت إرهاصاتها في (الكوميديا الإلهية) لدانتي، وفي آراء المعلم بطرس أبيلارد في باريس (١٠٧٩-١١٤٢م)، وروجر بيكون في اكسفورد(١٢١١-١٢٩٢م)، وفي نداءات الراهب إيكهارت من كولونيا (١٢٦٠-١٣٥٧م) مبشراً بحياة البساطة. كما نشطت الحركة الديرية **Monasterial Movement** على نحو ملحوظ متمثلة بالفرانسيسكان ودومنكيان، اللذان أطلقا على أتباعهما لقب (الأخوان **Frers**) وذلك لاتصالهم الدائم بأفراد المجتمع، وتكريس أنفسهم لنشر الكاثوليكية ومحاربة مناوئيها [10] .

وقد ولد مع التوسع الاجتماعي والاقتصادي والفكري إحساس جماهيري بالوحدة، ورغبة عارمة بأن تسود المسيحية أرجاء القارة الأوروبية لتتحول إلى " مملكة مسيحية". وفي خضم هذا الجيشان، انقسم مجتمع المدن على فريقين: الأول تبنى أفكاراً تهدف إلى

---

(٨) نسبة إلى مدينة ألبي جنوب فرنسا ظهرت هذه الحركة في القرن الثاني عشر وبالتحديد سنة ١١١٨م، وقد تعرضت لاضطهاد الكنيسة التي تمكنت من إبادة العديد منهم خلال الحروب الصليبية، وقد دمرت معها الحضارة المزدهرة للساحل الفرنسي.
الموسوعة اليهودية، المجلد الثاني، بغداد ١٩٩٠، ص ٧٩.

(9) Turberville, OP.Cit,P.2.

(١٠) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص١٨.

إصلاح الكنيسة ، والآخر، تبلورت لديه أفكار تنتقد الكنيسة وسلوك رجالها سعياً إلى العودة إلى أصول المسيحية التي نادى بها السيد المسيح، ونبذ الجشع الذي استحوذ على معظم كبار رجال الكنيسة آنذاك، وإعادقم إلى البساطة التي ينبغي أن يتصفوا بها وإبعادهم عما يخرجهم عن تعاليم السيد المسيح (١١) . ولعل الرسالة التي وجهها أحد كبار قادقا برنارد أوف كليرفو **Bernard of Clairvaux** (١٢) إلى البابا تقدم صورة عن تلك الحالة : " هل لي أن أرى، قبل موتي، رجال كنيسة الله يعملون كأسلافهم في الأيام الأولى على رمي شباكهم لصيد الذهب والفضة (١٣) .

ولا شك أن الهدف الذي سعت الكنيسة إلى تحقيقه من تأسيس محاكم التفتيش، محق الآراء المعارضة المنتقدة لسلطتها المهيمنة، التي تمتعت بها طوال القرون السابقة على المجتمع الأوروبي منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب . فقد رأى ذلك الحادث إلى أن تصبح البلاد دون حكومة مركزية، مما جعل الكنيسة تحل محلها

---

(١١) لقد ظهرت في تلك المرحلة العديد من الحركات، منها جديدة وأخرى قديمة، وأبرزها المانوية **Maniqueisma** وهي حركة دينية ظهرت في إيران في القرن الثالث، وانتشرت منها في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا، وقد حاربتها الكنيسة بعنف، لذلك قضي عليها بعد عقد مؤتمر في تور سنة ١١٦٣م بإنزال أقصى درجات العقوبة بأتباعها.

الموسوعة العربية الميسرة ، جـ٢، بيروت ١٩٨٠، ص ١٦٣٦.

والحركة الأخرى هي عقيدة تلاميذ الليوني **Pierrevalde`s** الذين يدعون إلى الرجوع إلى أصول الدين المسيحي وحياة الزهد للسيد المسيح.

الموسوعة اليهودية، المصدر السابق، ص ٧٩.

(١٢) برنارد أوف كليرفو أحد أبرز قادة الحركة الديرية خلال القرن الثاني عشر . للتفاصيل عن نشاطه ينظر:

Dana C.Munro and R.J. Sontag, The Middle Ages 395-1500,London 1928,PP.321-5.

(13)**Quoted in : Ibid., P.360**

قوة موحدة مهيمنة لمجتمع انحدر إلى هاوية البربرية والتمزق السياسي، فتشبث أفراده بالدين ليضمنوا حياة سعيدة بعد الموت نتيجة معاناتهم في حياتهم الدنيوية. وهذا التوجه كرسته الكنيسة من خلال نشاط بعثاتها التبشيرية، واحتكارها التعليم في العصور الوسطى (١٤) . وقد استطاعت الكنيسة، بكونها تستمد سلطانها من الله، أن تخضع السلطات المدنية لنفوذها، وتعد كل من يخرج على السلطتين هرطقياً ينبغي أن تطاله العقوبة (١٥) .

وأوكلت الكنيسة مهمة البحث عن المارقين إلى الأساقفة، الذين كانوا ينتقلون في مختلف الأنحاء تقصياً لأخبار الهراطقة والقبض عليهم، ومحاكمتهم أمام مجالس كنسيه مؤقتة يمكن أن نعدها نواة لمحاكم التفتيش. وكانت هذه المحاكم تنشط حيثما وجدت حركات المعارضة، وما أن تنتهي من مهمتها، حتى يتم حلها. وهذا ما حدث عند عقد مؤتمر تور سنة ١١٦٣م برئاسة البابا الاسكندر الثالث للقضاء على المانويين جنوب فرنسا، ومؤتمر لاتيران سنة ١١٩٧، وفيهما تقرر تكليف السلطات

(١٤) إن اضمحلال السلطة الرومانية في روما أبعد الكنيسة الرومانية عن التأثيرات السياسية المباشرة لأباطرة الرومان، مما جعل لها كياناً ازداد استقلالاً منذ القرن الرابع بخلاف ما هي عليه كنيسة القسطنطينية التي هيمن عليها الأباطرة. فضلاً عن ذلك فإن كنيسة روما ورثت مجد العاصمة الرومانية الأولى التي تنظر إليها الشعوب اللاتينية والجرمانية نظرة إكبار وتقديس. وقد تميزت كنيسة روما في تلك الحقبة بوحدة صفها وعقيدتها وتمسكها بقرارات المجالس العالمية الدينية الأولى، لذا قاومت البدع الدينية بلا هوادة بخلاف رجال الدين في الكنائس الشرقية الذين مزقتهم الاتجاهات المذهبية المتصارعة.

عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية (٤٧٦-١٥٠٠)، بيروت ١٩٦٧، ص٥٩، ينظر:

A. Wesley Roehm (and Others), History of Mankind ,Massachusetts 1973,P,142.

(15) Turberville , OP. Cit., P.3.

المدنية تنفيذ العقوبات بحق المارقين [١٦] . ولقد طبق هذا النظام في كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

وابتداء من سنة ١١٨٧م لم يقنع البابا الاسكندر الثالث بجهود الأساقفة في تعقب الهراطقة، لا سيما أنهم لم يكونوا متفرغين لهذه المهمة، فقرر تعيين الكاردينال دي سانت كريسون Cardinal de Saint Chrysogone قاصداً رسولياً في جنوب فرنسا وخوله صلاحيات واسعة لقمع الهراطقة في تلك الأنحاء، يعاونه في مهمته رهط من الرهبان الدومنيكان [١٧] .

وتوج التنسيق بين سلطتي الكنيسة الأولى والدولة في سنة ١١٨٤ بانعقاد اجتماع في فيرونا Verona بين البابا لوسيوس الثالث Lucious III والإمبراطور فردريك بارباروسا Fredrick Barbarossa [١٨] ، بحضور كبار الأساقفة، وتقرر فيه تنسيق مهمات رجال الكنيسة والسلطة المدنية، فالأولى مهمتها البحث عن المارقين أينما وجدوا ومحاكمتهم، في حين تتولى الثانية مهمة تنفيذ الأحكام من غير مراجعة،

---

(١٦) اسحق عبيد ، المصدر السابق، ص ٤٧.

(١٧) اسحق عبيد ، المصدر نفسه ، ص ٤١.

(١٨) فردريك بارباروسا (١١٢٣-١١٩٠): وهو أحد أباطرة الدولة الرومانية المقدسة، عمل على توحيد ألمانيا سنوات طويلة. كان حكمه عبارة عن سلسلة من الهجمات عبر جبال الألب ضد المدن الإيطالية، اصطدم مع البابوية في مواقف عدة حيث كان يعتقد أن البابوية يجب أن تكون دمية في أيدي الإمبراطور ،إذ كان يرفض باستياء الادعاء الطموح للبابا بمنح البركة، قاد الحملة الصليبية الثالثة، وفيها مات سنة ١١٩٠.

D.C.C. (Fredrick Barbarossa), P.253.

وأن كل من يتهاون في هذا الأمر يعرض نفسه لقرار الحرمان Excommunication [١٩] ومصادرة أملاكه.

وبموجب مرسوم Adabolendam الصادر سنة ١١٨٤، نظم البابا لوسيوس الثالث محكمة التفتيش البابوية، مستفيداً من تجارب [٢٠] السلطات المدنية الأوروبية في القرن الثاني عشر في محاسبتها الخارجين على القانون [٢١] . وعندما وجدت الكنيسة نفسها مضطرة إلى إيجاد قوانين تنظم وجود هذا النوع من المحاكم، اتجه البابا إنوسنت الثالث Innocent III [٢٢] في سنة ١١٩٨م، إلى الدعوة لإحياء القانون الروماني القديم، ليستند إليه المشرعون الأوائل الذين نظموا محاكم التفتيش أول مرة على أسس قانونية ثابتة، وطبقاً لذلك أصبحت الهرطقة مرادفة للخيانة، حيث يدان المتهم وتصادر أملاكه وأراضيه، ويحال إلى السلطات المدنية لتنفيذ الحكم [٢٣] .

---

(١٩) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص ٤٠.

(20) R.C. Finucane , The Encyclopedia of Religion, Vol.7, London 1985, P.252.

(21) Finucane, OP. Cit., P.253

(٢٢) إنوسنت الثالث Innocent III : وهو من عائلة نبيلة تلقى علومه في باريس وأصبح كاردينالا سنة ١١٩٠، وفي سنة ١١٩٨ انتخب (بابا)، واعتبر أن من حق البابوية التدخل في الشؤون الدنيوية- معتمداً السيطرة على السلوك الأخلاقي للحكام وعلى نظرية السيادة المطلقة، وهو أول بابا استخدم لقب " نائب المسيح" .

D.C.C,(Innocent III),P.992.

(23) Finucane , OP.Cit., P.252.

اشتهر إنوسنت الثالث، فضلاً عن إرساله محاكم التفتيش، بنشاطه الواسع في كبح حركات المعارضة للكنيسة، وبأمر منه تحركت حملة صليبية لسحق ما يسمى بهراطقة جنوب فرنسا في بداية القرن الثالث عشر. لمزيد من التفاصيل ينظر :

ومع بداية القرن الثالث عشر، جرى التنسيق بين الكنيسة والسلطات المدنية بشأن تنفيذ الأحكام بحق " المارقين"، وحددت العقوبة بإعدام المارق حرقاً.

وقد كانت أول منطقة شهدت تنفيذ عقوبة الإعدام جنوب فرنسا، انتشرت بعدها إلى مناطق أخرى، كما وجدنا ذلك في سنة ١٢٢٠م، حيث أصدر ملك صقلية فردريك الثاني قانوناً نص على أن " كل من يجاهر بالمروق عن الكنيسة يعدم حرقاً". ولم يقف القانون عند هذا الحد، بل حمل القضاة الذين يتواطئون مع من يتهم بالهرطقة مسؤولية الارتداد عن الكنيسة، وتعاليم الرب (٣) .

وأصبح واضحاً للبابوية أهمية المحكمة بأنها أداة فاعلة في مواجهات التيارات المعارضة لا سيما أن تأسيس منظمتي الأخوة الدومنيكانية والفرنسيسكانية زود الكنيسة بوكلاء يمتلكون المقدرة والكفاءة والحماسة الدينية لتنفيذ القرارات البابوية(٤) فزاد نشاط المحكمة بعد أن أصدر البابا إنوسنت الرابع في ١٢٥٢م قراراً بابوياً ينظم إجراءاتها، مخولاً رجالها ممارسة التعذيب الجسدي، وجعله وسيلة فاعلة لانتزاع المعلومات من المتهم (٥) .

واستمرت محاربة المتهمين بالهرطقة وأقرت عقوبة الإعدام حرقاً في كل من : ألمانيا سنة ١٢٢٨م، وفرنسا سنة ١٢٧٠م، حيث عد من يخالف تعاليم الكنيسة أو ينتقدها مرتكباً جريمة بشعة عقوبتها الموت. وفي ذلك الوقت تصاعد نشاط الأخوية

Munro and Sontag, Op.Cit,PP.359-60.

(3) Henri Maisonneuve ,Etuds Surr Les Orgtnes DL`tnqsition ,Paris 1966,P.243.

(4) Munro and Sontag ,Op.Cit., PP.360-61.

(5) Finucane,OP.Cit., P. 254.

الدومنيكانية والفرانسيسكانية [٦]، وأبدى رجالها حماسة محمومة في مطاردة الهراطقة، وهذا ما يفسر أن أكثر المفتشين وأرفعهم مكانة ونفوذاً في محاكم التفتيش كانوا من الدومنيكان والفرانسيسكان حصراً[٧] ومنح البابا الأساقفة- أعضاء المحكمة - صلاحيات واسعة، منعت من تدخل السلطات المدنية في سير إجراءات التعقب والمحاكمة، مما فسح المجال واسعاً أمامهم لممارسة القسوة والبطش. وعلى سبيل المثال لم يتردد أسقف طولون وكبير مفتشيها من إصدار أمر بحرق عجوز طاعنة في السن لمجرد أنها أظهرت تعاطفاً مع بعض المتهمين بالهرطقة [٨]

ولم تقتصر واجبات الأساقفة على النظر في القضايا والبت بها، بل كان عليهم تعقب المرتدين والتجسس عليهم بهدف كشفهم، حتى لو لم يظهر نشاط واضح. وكان البابا يشرف على هذا الأمر من روما، وقد يستدعي الأمر إرسال مندوبين عنه إلى المدن التي تتفشى فيها الهرطقة [٩] ، لمساعدة أساقفتها المخولين من قبله في تنفيذ المهمة.

ولقد أدى تولي الأساقفة مهمة القضاء في هذه المحاكم، وتورط الديوان البابوي في منح صكوك غفران مزيفة [١٠] إلى الاحتجاج عند البابا نفسه، إذ عرف عن المحاكم الأسقفية كثرة شهادات الزور فضلاً عن ملفات المتهمين من ذوي النفوذ.

---

(٦) بشأن نشوء هاتين المنظمتين ودروهما ينظر :

Munro and Sontag,OP.Cit., PP.360-5.

(7) Maisonneuve ,OP. Cit., P.244.

(8) Jean Pierre Dedieu , Lainquistion ,Madrid , 1993,P.18.

(9) Turnersville , OP. Cit .,P.5.

(١٠) صكوك الغفران **Indulgence** ، أول من ابتدعها البابا بونيفيس الثامن **Boniface VIII** سنة ١٣٠٠م حينما أصدر مرسوماً مقدساً عرف بالغفران نص على أنه في حالة اعتراف شخص بذنوبه وتبرئة منها وندمه على خطاياه بصدق، فإنه يتخلص من عقاب الآخرة، ولكي يحصل على المغفرة عليه أن يدفع هبة مالية. علماً أن المعترف لا يدخل الجنة بعد موته إلا بعد أن يمضي مدة من الزمن في المطهر.

ولمحدودية سلطة الأسقف باسقفيته الخاصة، ولكثرة واجباته الأخرى التي تمنعه من تكريس وقت أكبر لحل القضايا، فكر البابا بإجراء يجعل عضو المحكمة يتفرغ للمهمة المكلف بها ولا يعني بالواجبات الأخرى المتعلقة بشؤون أبرشيته(١١). وبناء على ذلك قرر البابا غريغوري التاسع Gregoru IX (١٢) سنة ١٢٣١م، تعيين الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان (١٣) في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وألمانيا ومقاطعات كونتية طولوز قضاة دائمين، لهم سلطات تتجاوز القوانين والتشريعات المحلية. وقد أمر البابا غريغوري التاسع باعتماد القوانين التي قررها مؤتمر تولوز في سنة ١٢٢٩م لإدارة هذه المحاكم حيث قرر المؤتمر المذكور إصدار عقوبة الإعدام حرقاً ضد من تثبت عليه تهمة الهرطقة.

وكان عمل الرهبان في البدء قد استند على أساس معاونتهم الأساقفة بصفة خبراء في التحقيقات والمحاكمات، ولكن بمرور الزمن نلمس تراجعاً في سلطة الأساقفة

---

(11) Dedieu, OP. Cit ., P.21.

(١٢) غريغوري التاسع Gregory IX (١١٤٨-١٢٤١): انتخب بابا سنة ١٢٢٧م، ابن عم إنوسنت الثالث، درس في باريس، في سنة ١٢١٧ قاد حركة التبشير بالحروب الصليبية في شمال ووسط إيطاليا. اختلف مع الإمبراطور فردريك الثاني مرتين، كان له دور مهم في إقامة محاكم التفتيش وإرساء قواعدها في بداية العصور الوسطى، معتمداً على الفرانسيسكان والدومنيكان.

D.C.C,(Gregory IX)., P.585.

(١٣) اعتمدت البابوية في إنشاء محاكم التفتيش على الدومنيكان والفرنسيسكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله (Domini Canes) في اصطياد الهراطقة والمحافظة على المذهب الكاثوليكي، أما تسمية الدومنيكان فتعود إلى القديس دومنيك Domingo الذي ولد في قشتالة وساهم في الحملة ضد الالبيين عن طريق الوعظ والإرشاد وجعل مركزه روما.

عبد القادر أحمد اليوسف، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

المحليين لصالح [١٤] الأخويتين الدومنكانية والفرنسيسكانية التي حصر البابا سلطة الإشراف المباشر على محاكم التفتيش برجالها ومنع الأساقفة المحليين من التدخل بشؤونها[١٥].

وبذلك نستطيع أن ننسب محاكم التفتيش التي ظهرت في الربع الأول من القرن الثالث عشر إلى البابا غريغوري التاسع الذي أصدر مرسوماً بابوياً يسمى Declinant في ١٢٣٢/٥/٢٦ موجهاً إلى أسبارغو كبير أساقفة تاراغونا في أرغون ومساعديه، يأمرهم فيه بالتحقيق والتحقق في أسقفيا تهم عن الهراطقة، والاستعانة بالوسائل المختلفة لكشفهم وإحالتهم إلى القضاء[١٦] وقد نظمت هذه المحاكم دستوراً خاصاً يشتمل على بنود متعددة يتوجب فيه، على أعضائها، أن يسيروا وفقه. وأهم بنود هذا الدستور هي تنفيذ الإعدام حرقاً لمن تثبت عليه تهمة الهرطقة ومصادرة أملاكه [١٧] . وحدد أعضاء المحكمة باثني عشر عضواً ولرئيسها وحده سلطة إصدار الأحكام[١٨] .

وفي سنة ١٢٣٣ أصدر أسبارغو، رئيس أساقفة تاراغونا، قانوناً يقضي بهدم منازل المتهمين، أما إذا كانت ضمن أراضي التاج فيتم رهنها للملك، وقد أعلن أن

---

(١٤) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص ٤١.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١٦) ينظر:
Henry Charles Lea , History of the Inquisition of the Middle Ages, Vol .2, New York 1958 ,P.64.

(١٧) لويس شيخو اليسوعي،(الكنيسة الكاثوليكية بإزاء ديوان التفتيش)، مجلة المشرق، السنة ٢١، بيروت ١٩٢٣، ص ٩٣٣-٩٣٥.

(١٨) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص٤٤.

كل من يتهم بالهرطقة غير مؤهل لتولي أي منصب، ومنح السلطات المدنية صلاحية تعيين اثنين أو ثلاثة من المدنيين للمساعدة في التحقيق، واتخاذ كافة الاحتياطات لمنع هروب المتهمين والإبلاغ لدى الأسقف أو السلطة المدنية أو السيد الإقطاعي في المكان الذي يقيم فيه ذلك المتهم(١٩) .

ومع هذا المزج للعناصر المدنية والدينية، نستطيع أن تكتشف أصل بذرة محاكم التفتيش الأسبانية التي اتصفت بسمات تختلف نسبياً عن تلك التي أقيمت في فرنسا وألمانيا وطولوز، وكان التشدد أبرز صفاها، فأي إهمال ينسب إلى أحد منتسبيها يعرضه لعقوبات مختلفة، فيجرد من رتبته الكنيسة، ويحرم مدى الحياة من الحصول على إعانة الكنيسة، إذا كان من رجال الدين، أما إذا كان العضو من المدنيين، فيطرد من منصبه، بعد أن يغرم مبلغاً من المال (٢٠) .

وفي سنة ١٢٣٥م أرسل البابا غريغوري التاسع مجموعة من التعليمات التي أوصى بها ريموند البنافورتي، وفي حدود ذلك الوقت نجد التسجيل الأول للأعمال التي مارستها المحكمة ضد الهراطقة (٢١) . ونجد أول هذه القضايا التي تعكس لنا موقف الكنيسة من العرب المسلمين في أسبانيا، محاكمة الكونت روبرت روزيلون **Robert Count of Rosellon** الذي يعد من أكبر أصحاب الاقطاعات لدى تاج أرغون، وقد كان متورطاً في بعض النـــزاعات بشأن الغرامات وضريبة العشر مع أسقف أيلني التي كانت أرشيتها تقع في أراضيه. وقد اقمه الأسقف بتـــزعمه الهراطقة في المنطقة، وأنه كن يستخدم مقاطعته ملاذاً لهم، وقد أمر رئيس أساقفة تاراغوانا جوليان — الذي

(19) Lea, History of Inquisition ,P.164.

(20) Ibid ., P.165.

(21) Ibid ., P.151.

خلف أسبارغو بعد موته- بالقبض عليه وسجنه، لكنه نجح في الهرب إلى إحدى مقاطعاته الجبلية التي يتعذر الدخول إليها، وتعرضت أراضيه للمصادرة. ومن هناك كتب إلى البابا متظلماً، فوجدها غريغوري التاسع فرصة لتوجيه الضربة إلى المسلمين، فرد بأنه يسمح له بالعودة إلى أحضان الكنيسة وإزالة محنته(٢٢) ، بشرط أن يوجه قدراته، وقدرات رجاله، لمحاربة العرب خلال المدة التي تحددها له الكنيسة. كما كتب غريغوري التاسع سنة ١٢٣٧م إلى ريموند يطلب منه العفو عن الكونت إذا قام ورعاياه بالمساعدة لمدة ثلاث سنوات في غزو بلنسية، وتصادر جميع أراضيه لصالح التاج الأسباني في حالة تقاعسه عن أداء المهمة(٢٣) .

وهكذا تم في سنة ١٢٣٨م تأسيس محكمة تفتيش أرغون، وفي شهر نيسان من ذلك العام، كتب غريغوري التاسع إلى الكاهن الدومنكي في ارغون، معربا عن قلقه من انتشار الهراطقة عبر البلد إلى الدرجة التي لم يعودوا فيها يلجأون إلى السرية، بل راح بعضهم يهاجم الكنيسة علناً. وعلى الرغم من أن الكثير من هذا الكلام مبالغ به، إلا أننا نستشف من الاعترافات المسجلة في محكمة تفتيش طولوز، ظهور تحرك مناوىء للكنيسة وتذمر من تصرفات رجالها، وإن لم يبلغ ذلك درجة التحريك الشعبي. وهذا يفسر تشديد البابا على رجاله بالتشدد في مطاردة الهراطقة والاستعانة بالسلطات المدنية عند الضرورة.

وبعد أن ترسخت محكمة أرغون، اتسع نشاط الكنيسة، فتأسست محكمة تفتيش برشلونة، وتحولت تعليمات المفتش برنارد غوي **Bernard Geui** والراهب ريموند البنافورتي إلى منهج يرسم للمحكمة إجراءاتها التي تتعامل بها مع الهراطقة،

---

(٢٢) ينظر:

Lea, History of Inquisition ,P.166.

(23) **Ibid .,P.165.**

وتعدى ذلك إلى أن يصبح المنهج مرجعاً ليس في أسبانيا المسيحية وحدها، بل وفي فرنسا أيضاً (٢٤) .

وقد استطاعت المحكمة تحقيق درجة من استقلالها سنة ١٣٥١م عندما نجح أسقف أرغون فراي نيكولاس بالحصول من البابا كليمنت السادس على صلاحية تعيين المحققين (٢٥).

ومن الأساقفة الذين اشتهروا في محكمة تفتيش أراغون نيكولاس ايميريك – الذي أنتهت حياته بالنفي – حيث خدم المحكمة ثلاثين عاماً وألف مؤلفات عديدة، طبع منها كتابه الشهير تعليمات محاكم التفتيش **Directrium Inquisition** الذي أصبح منهجاً معتمداً لتنظيم عمل المحكمة والمبادىء والتفاصيل التي ترشد المحقق في أفعاله. وقد ظل هذا الكتاب مرجعاً أساساً لكل المؤلفات والمناهج التي جاءت بعده في أسبانيا كلها، واعتمدته أيضاً محكمة التفتيش التي أسسها فرديناند وايزابيلا فيما بعد(٢٦)

وقد فصل ايميريك في هذا الكتاب كل ما يتعلق بأسلوب المحقق في اثناء عملية التحقيق مع المتهم بالهرطقة، وأهم الإجراءات التي تتخذ بحقه منذ بدء القبض عليه حتى إعلان الحكم (٢٧) .

---

(24) Lea, History of Inquisition ,P.166.

(25) Ibid ., P.165.

(26) Ibid .,P.172

(27) Ibid ., P.173

وقد بدأ دور محكمة التفتيش الأرغوانية بالضمور منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر بسبب النــزاع والخلافات بين الفرانسيسكان والدومنيكان (٢٨) ، الذي استمر حتى عقد مؤتمر في روما سنة ١٤٦٣م برعاية البابا بيوس الثاني لفض الخلاف. وقد استمر المؤتمر، الذي حضره ثلاثة رجال من المنظمتين، ثلاثة أيام استخدم فيه البابا نفوذه لتقريب وجهات النظر بين الطرفين، واختتم بإعلان الحبر الأعظم :" إن أي اتهام يوجه من الأخويتين للأخرى بالهرطقة يعد باطلاً"، وهدد من يخالف ذلك بالحرمان من الكنيسة والسجن(٢٩) .

ضمور دور محاكم التفتيش في القرنين الرابع عشر والخامس عشر:

أخذت مظاهر الضعف تبدو على محاكم التفتيش في القرن الرابع عشر، أدت بها إلى التحول إلى محكمة اعتيادية تابعة للنظام الإداري للكنيسة، على الرغم من محاولات متفرقة جرت لتنشيط دورها وتوحيد أساليب إجراءاتها (٣٠) .

---

(28) Lea ,History of Inquisition , P.168

كان سبب النزاع يرجع إلى أن أحد الرهبان الفرنسيسكان الذي كان يحتل منصب اسقف برشلونة المدعو روزيلي صرح في احتفال عام سنة ١٣٥١ بأن الدماء المراقة من السيد المسيح قد فقدت قدسيتها، ولقد أثار هذا التصريح غضب الدومنيكان الذين عارضوه بشدة.

Ibid., P.172.

(٢٩) ينظر نص التصريح :

Ibid ., P.173.

(٣٠) سارت تحقيقات المحققين على وفق مناهج عديدة لتنفيذ إجراءاتهم، منها منهج **Raimund de Pen'afort** في القرن الثالث عشر ومنهج **Beranrd Geui** في القرن الرابع عشر ومنهج **de Nicola's Eymerick** في القرن الخامس عشر . ينظر:

Dedieu ,Op.Cit,PP.31-2.

وقد انشغلت كنيسة روما في القرن الرابع عشر بملاحقة مجموعات – في إيطاليا خاصة – ساءها ما كان يتمتع به رجال الكنيسة الكبار من حياة بذخ وترف، فدعت إلى الزهد والتمسك بمبادىء السيد المسيح الذي " يوشك على الظهور لتطهير هذا العالم". وبلغ الأمر حد اتهام البابا بالخروج عن صلب المسيحية، وتكمن خطورة هذه الحركة في ظهورها في إيطاليا، قلب العالم المسيحي[٣١] .

وفي فرنسا وألمانيا كان على الكنيسة مراقبة مجموعة تدعى أخوان الروح الحرة **Brethren of Free Spirit** الذين كانوا يؤمنون بأنهم يرتبطون بالروح المقدسة على نحو مباشر من غير اللجوء إلى وساطة القس[٣٢] . وهذه الحركات، التي ظهرت في تلك المرحلة، لم تكن إلا حركات فردية لم تؤثر كثيراً في الأوساط الشعبية، مما سهل على الكنيسة قمعها بسهولة.

وفي بداية القرن الخامس عشر شاع في الأوساط الشعبية أن السحرة يجتمعون دورياً، بحضور الشيطان ممثلاً فعلاً، والذي يقوم بأكل لحوم الموتى من صغار الأطفال، وهذه الإشاعات كانت مدعاة لحدوث خوف وفزع ذهب ضحيته آلاف من الأبرياء، إذ بدأت الاعتقالات في جبال الألب في ألمانيا وشمال فرنسا. وبعد مرور ثلاثين عاماً قرر برلمان باريس (محكمة باريس) إلغاء جميع العقوبات والقرارات الخاصة بالسحرة،

---

(31)Dedieu ,OP, Cit .,P.32

(32) Ibid ., P.33

للمزيد من التفاصيل ينظر:

Robert Lerner, The Heresy of the Free Spirit in the Later Middle Ages, London 1972,PP. 91-100.

كما أدان البرلمان الذين نشروا تلك الاتهامات التي راح ضحيتها العديد من رجال الدين، وفرض عقوبات صارمة عليهم (٣٣) .

وهناك سبب آخر لضعف محاكم التفتيش في أوروبا وهو الأزمة المالية التي عاشتها المحكمة، ولا سيما في القرن الرابع عشر الذي انحسر فيه دور محاكم التفتيش، حيث أن المحكمة كانت تعتمد، قبل القرن الرابع عشر، مادياً على مصادرة أموال المتهم. وقد بدأت بإصدار قرارات متخبطة بمصادرة الأموال وفرض الغرامات لتغطية مصاريف المحكمة. (٣٤) .

ومن جهة أخرى فقد جدد الأساقفة التماساتهم من البابا طالبين منه أن يمنع تدخل أعضاء المنظمة الدومنيكانية في أعمالهم، وكان ضرورياً، بعد سنة ١٣١٢م، الحصول على الموافقات القانونية لكل عملية اعتقال لإضفاء صفة الشرعية على تعذيب المعتقل، إذا صدر حكم عليه، وقد لعبت هذه الموافقات دوراً كبيراً بحيث كان يصعب تمييز أوامر البابا من أوامر الأسقف (٣٥) .

ونستطيع أن نخلص إلى القول بأن هيمنة السلطات المدنية على محاكم التفتيش هو أحد الأسباب المهمة لتدهور مكانتها، فقد حكمت المحكمة على جان ذارك Joan Dark. (٣٦) بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة، ونفذ الحكم في ١٤٣١م، إلا أن

---

(33) Finucane , OP. Cit ., P. 255.

(34) Dedieu , OP , Cit , P.35.

(35) Finucane ,OP . Cit, P. 252.

(٣٦) جان دارك: أشهر الشخصيات رومانسية خلال حرب المائة عام بين الإنجليز والفرنسيين . فتاة ريفية يافعة، الهبت حماستها وتضحياتها الفرنسيين في نضالهم لطرد الغزاة والإنجليز من بلادهم. دفعها الشعور الوطني الوقاد إلى حالة خيل فيها إليها أنها تسمع صوت العذراء وأصوات القديسين يطلبون إليها

الكنيسة وبعد وقت طويل أطلقت عليها لقب " القديسة" وبرأها مما نسب إليها [٣٧] . وهذا بحد ذاته دليل آخر على عدم مصداقية محكمة التفتيش البابوية، وحالة الإرباك في إصدار القرارات ضد المتهمين، وجريها وراء الكسب المادي، وفساد كثير من رجال الدين ، لا سيما الأساقفة، وفقدان البلاط البابوي قدسيته لدى بعض رجال الدين والعامة بإصداره صكوك الغفران – التي كان بعضها مزيفاً – من أجل الكسب المادي، وتزمت المحكمة للحيلولة دون تدخل السلطات المدنية بإجراءاتها. هذه الأمور مجتمعة أدت بالنتيجة إلى ضمور المحكمة في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر [٣٨] ، ويدل على ذلك فشلها في إيقاف نشاط الحركة الإصلاحية التي قادها جون هس **Jhon Huss** المعروفة بـــ (هسيتا **Hussita**)[٣٩] ، إلا أنها نشطت في أماكن أخرى بولادة محكمة جديدة بثوب جديد أكثر وحشية وقسوة، ألا وهي محاكم التفتيش الأسبانية الحديثة

الذهاب إلى ولي العهد **Dauphin** في شينون وإقناعه بالتوجه إلى ريمس ليتوج ملكاً على فرنسا. ومع أن شارل لم يستجب لطلبها خوفاً، فإنه جهزها بقوة صغيرة سارت بها لحرب الإنجليز. ألهب ظهورها حماسة القوات الفرنسية بعد تخاذل دام طويلاً، واستطاعت تلك القوات بقيادتها تحرير أورليان، مما عزز إيمان الجند الفرنسيين بها في الوقت الذي أثار ظهورها خوف الجنود الإنجليز الذين اعتقدوا أنها ساحرة مبعوثة من الشيطان. توج شارل ملكاً في ريمس باسم شارل السابع، ولكنه كان متخاذلاً فلم يواصل استغلال الظروف والضغط على الإنجليز، وتجاهل نداءات جان دارك في مواصلة الحرب تاركاً اياها وحيدة في الميدان، فأسرها البرغنديون وسلموها إلى الإنجليز، الذين مارسوا معها التعذيب طوال الشهور النسعة من سجنها، وقدمت لمحكمة التفتيش في ١٤٣١م التي عدتها هرطقية وحكمت عليها بالموت حرقاً. ينظر:

Munro and Sontag ,OP.Cit ,PP. 432-5.

(37) Dedieu , OP. Cit., P. 35.

(38) Ibid ., P. 35.

(٣٩) جون هس **John Huss**(١٣٦٩-١٤١٥): وهو مصلح من بوهيما، ولد في عائلة فلاحية بسيطة. دخل جامعة براغ سنة ١٣٩٠م، حصل على درجة الماجستير سنة ١٣٦٩م، وفي ١٤٠١م

محاكم التفتيش الأسبانية:

عوامل نشوئها:

احتلت أسبانيا مكانة مهمة في زمن حكم الإمبراطورية الرومانية لها حتى احتلال سنة ٤١٠م من الغوط الغربيين (٤٠) ، الذين ظلوا يحكمونها حتى سنة ٧١١م حكماً فردياً استبدادياً معتمدين على قوة جيوشهم، إلا أن الأمر لم يدم طويلاً، فقد دبت الخلافات بين قادة الغوط، وتحولت إلى صراعات وانقسامات دينية أدت إلى تمزيق البلاط وانتهت بالفتح العربي الإسلامي (٤١) .

انتخب عميداً للكلية الفلسفية، وفي سنة ١٤٠٩م انتخب قساً للجامعة كان محبوباً بسبب مبادئه السياسية إذ رفض حق الملكية والتنظيم المتسلسل هرمياً للمجتمع.

D.C.C , (Huss Jhon) , P. 667.

للتفاصيل ينظر:

Munro and Sontag , OP .Cit., PP. 454-463.

(٤٠) حكم الغوط الغربيون أسبانيا ثلاثمئة سنة، واختلطوا خلال ذلك بسكان البلاد الذين يتكلمون اللغة اللاتينية، واتخذوها لغة لهم، واعتنقوا النصرانية التي كانت دين الدولة الرسمي بدلاً من الوثنية ديانة آبائهم. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط٤، مطبعة الحلبي ١٩٦٤، ص٢٦٤، محمد عبدة حتاملة، ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان ١٩٩٦، ص ٢٠٢.

(٤١) محمد عبدة حتاملة، المصدر نفسه، ص ٥٢٥.

وقد فتح العرب المسلمون أسبانيا سنة ٧١١ [١]. ومعهم شهدت أسبانيا مرحلة جديدة، وصلت فيها البلاد إلى قمة تطورها الحضاري، لا سيما في ميدان العلوم والآداب والفنون والطب والرياضيات وفن العمارة الذي تميز بسحره الخاص [٢] .

ولم يكن حكم العرب متعصباً، مما أدى بالعديد من المسيحيين إلى الاهتداء إلى الإسلام، وكانت سلالة الأمويين قد وصلت أوج قوتها في منتصف القرن العاشر.

((١)اشترك في فتح الأندلس سبعة آلاف مقاتل عربي مسلم بقيادة طارق بن زياد، وقد ترك العرب لسكان البلاد حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم النصرانية أو غيرها من الديانات السماوية الأخرى، فضلاً عن أموالهم وكنائسهم، وفرضوا على كل فرد جزية سنوية مقدارها ١٥ فرنكا عن كل شخص ونصف فرنك عن كل مملوك.

لمزيد من التفاصيل ينظر:

عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ط١، مصر ١٩٥٨، ص ٤٧، عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٧١١-١٤٩٢)، ط١، بغداد ١٩٧٦، ص ٤٦، عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم، تاريخ المسلمين في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، مصر، بلا ، ص ٥-٦. د. محمد عبده حتاملة، الأندلس، التاريخ و الحضارة والمحنة دراسة شاملة، عمان ، ٢٠٠٠، ص ٥٥، محمد عبده حتاملة، جيل المولدين في المغرب والاندلس دورهم في الفتح وأثرهم في الحياة العامة، عمان ٢٠٠٣، ص ٨٥.

Stanley Lane Pool , The Story Of the Nations, London 1912, P.1
R. Dozy, History des Muslmans D`espagne , Vol. III, Leyden 933, P. 23.

(٢) وصلت الحضارة إلى مستويات عليا من التطور في أسبانيا، وتحولت إلى قبلة طلاب العلم والمعرفة في أوروبا، لتطور مكتباتها وجامعاتها، وتحولت إلى أحد عوامل النهضة الأوروبية الحديثة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولا ينكر الباحثون والمؤرخون الأجانب أن أسبانيا الإسلامية كانت قد سطرت صفحة من أروع صفحات التاريخ تقدماً في أوروبا خلال العصور الوسطى.

لمزيد من التفاصيل ينظر:

Dem. Joseph Conde, Historie De Ladomination Des Arabes En Espagne, Paris 1825 ,PP. 433-85.

حسن محمد جوهر، مصطفى شريف، أسبانيا فردوس العرب المفقود، القاهرة ١٩٧٦، ص ٣-٤.

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر تسللت عوامل الضعف إلى جسم الدولة العربية [٣] ، ويعود ذلك إلى أن الدولة العربية في الأندلس ضمت عناصر متباينة من حيث الجنس والعرق والدين [٤]، فأصبح من الصعوبة على الدولة إحكام السيطرة على البلاد، ناهيك عن ظهور الصراعات المحلية على الحكم التي مزقت البلاد، وأضعفت قوة العرب. رافق ذلك ضعف الحكم العربي في الأندلس، ودخول أوروبا مرحلة تاريخية جديدة ، تمثلت في نهضتها الحديثة التي أدت إلى تطورات اقتصادية وسياسية، عززت قدراتها العسكرية[٥] .

---

(3) Turberville , Op .Cit ., P.19.

(٤) لقد ضمت الدولة العربية في الأندلس أجناساً متعددة ، وكان على رأسهم العرب، والقسم الآخر هم المهاجرون من شمال أفريقيا الذين كونوا جالية كبيرة في الأندلس وفئة الصقالبة، وتشمل جموع الأسرى والرقيق من مختلف الأجناس الأوروبية، وكذلك أهالي بلاد الأندلس الأصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم، وعرفوا باسم المستعربين واليهود.
سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ط٦، مصر ١٩٧٥، ص ص ١٤٠-١٤٦، س. كولان، الأندلس، ترجمة خورشيد، ط١، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥٣؛ محمد عبده حتاملة، الاعتداءات الافرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس والمشرق (حرب متواصلة على الإسلام)، عمان ٢٠٠١، ص ٤٨.

(٥) إن الأوضاع المتردية في الأجزاء الإسلامية مكنت الأسبان من إحراز انتصارات على المسلمين في القرن الحادي عشر. إذ أن سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٠٣٦م واختلاف دول الطوائف هيأت فرصاً مناسبة لالفونسو السادس ملك قشتالة لزيادة رقعة بلاده. وفي ذلك الوقت كانت هناك أربع ممالك مسيحية في شمال أسبانيا وهي : ليون، نافار، برشلونة، وقشتالة.
لمزيد من التفاصيل ينظر:
Henri Terrassa , Islam De`spagne , Paris 1958 , P. 233; M. De Marrles, Histoire De Le`spagne Par Les Arabes, Tours 1855, P. 267: Munro and Sontag , OP.Cit , PP. 399-9:
محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط٤ ، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢١٢-٣١٣.

ولم تكن قبضة المسلمين قد امتدت إلى أقصى الشمال في أسبانيا في المناطق المطلة على خليج بسكاي Biscay وجبال الكانتا بريان والبيرنس التي أصبحت منطلقاً لما عرف بحروب الاسترداد Reconquista ، استهلها سانشو النافاري (٩٧٠-١٠٩٠) وابنه فرديناند الأول، الذي أصبح حاكماً لممالك ليون وقشتالة، فسقطت المدينة العربية الكبرى طليطلة Toledo سنة ١٠٨٥ م على يد الفونسو السادس (١٠٧٣-١١٠٩) ملك ليون وقشتالة، وكان لسقوطها تأثير بالغ الأهمية، ليس على المسلمين في الأندلس فحسب، بل على العالم المسيحي الذي أغراه ذلك النصر على استمرار حروبه ضد المسلمين [٦] . ثم تلاها سقوط سرقسطة Zarayoza سنة ١١١٨م بيد الفونسو الأول المحارب . وأخيراً سقوط قرطبة وأشبيلية Sevilla اللتين استولى عليهما فرديناند الثالث Fernando III (١٢١٧-١٢٥٢) في ١٢٣٦ و ١٢٤٨ على التوالي. وتخلل هذه الانتكاسات تهاوي الكثير من المدن والنواحي التي لا تقل في أهميتها عن القواعد الكبرى [٧] .

وهكذا لم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت أقاليم الأندلس الشرقية والوسطى قد سقطت في يد أسبانيا النصرانية. وبحلول القرن الرابع عشر كانت حدود

---

(٦) لقد كان لسقوط طليطلة على يد الملك الفونسو أثر مهم في شعور المسلمين الديني، فقد اهتز ملكهم وأخذوا يفكرون بطريقة لوقف الزحف المسيحي، واستعادة ما فقد من أراض، فاستعانوا بالمرابطين في شمال أفريقيا، مقدم جيش بقيادة يوسف بن تاشفين ملك المرابطين لمساعدة المسلمين ، فوقعت معركة الزلاقة بين المسيحيين والعرب سنة ١٠٨٦م، انتصر فيها المسلمون ليبدأ حكم المرابطين الذي دام نصف قرن.
محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط١، مصر ١٩٤١، ص ١٤٥، دورتي لودر، أسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فؤاده، مصر ١٩٦٥، ص ٧٢، محمد عبده حتاملة، الأندلس، المصدر السابق، ص ٥٢٨

(٧) د. عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد ١٩٨٨، ص ٨.

أسبانيا المسلمة قد انحسرت في مملكة غرناطة [٨] .

التي لجأ إليها عدد كبير من العرب واليهود فراراً من الاضطهاد والتنكيل على أيدي المسيحيين. ولهذا أصبحت المملكة الأمل الأخير لهؤلاء السكان الذين فضلوا الارتحال إليها تحت ظل الحكم العربي الإسلامي لممارسة شعائر دينهم، واستخدام لغتهم بحرية[٩] في مرحلة اتسمت بالتعصب الديني الذي طغى على مظاهر الحياة العامة و الخاصة [١٠].

وفي القرن الخامس عشر تسرب الانحلال إلى القوى المسيحية، لا سيما بعد ضمور العامل الذي كان يوحدها متمثلاً بحروب الاسترداد، فقد أضعف قشتالة حكام مثل جون الثاني وخليفته هنري الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤)، وكانت أرغون قد ضعفت في الحقبة نفسها، حيث كانت قوة الملكية مرتبطة بالامتيازات التي يتمتع بها النبلاء والسلطات الكبيرة التي تمتلكها سلطات كل من أرغون وكاتلونيا وفالنسيا [١١]

---

(٨) كانت مملكة غرناطة آخر معاقل العرب في أسبانيا بعد أن تمزقت دولتهم، وقد استطاعت لمناعتها أن تقاوم الاسبان قرنين ونصف من الزمان حتى سقوطها سنة ١٤٩٢.

محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٤.

لمزيد من التفاصيل ينظر:

عبد الفتاح مقلد، كيف ضاع الإسلام في الأندلس بعد ثمانية قرون، بغداد ١٩٩٣، ص ٢٢. دورثي لودر، المصدر السابق، ص ٧.

(٩) عبد الواحد ذنون طه، المصدر السابق ، ص ٨.

(10) Par M. Joseph Lavallee , Espagne Depuis L`expulsion Des Maurrs Jusqù`a L`annee 1847, Paris 1958 , P. 51.

(11) Roth , the Spanish Inquisition , OP .Cit ,P. 40.

وفي سنة ١٤٧٤م اعتلت عرش قشتالة الملكة إيزابيلا [١٢]، أخت الملك هنري الرابع غير الشقيق[١٣] التي وجهت اهتمامها – على الرغم من داومة الحرب الأهلية – إلى مسألة المتحولين الجدد إلى المسيحية. وقد كانت محاطة برجال الدين والنبلاء الذين كانوا يرون ضرورة اتخاذ إجراءات ضد أولئك سواء أكان أساس روحي أم سياسي. وقد كان من بين هؤلاء راهب يدعى توماس توركيمادا Thomas de Torquemada [١٤] (وهو كاهن اعترافات الملكة من صغرها)، وكذلك رئيس

---

(١٢) ولدت إيزابيلا Isabella الشهيرة بـــ(الكاثوليكية) سنة ١٤٥١م، وهي ابنة الملك حوان الثاني ملك قشتالة وحفيدة انريكي الثالث الملقب بالطيب وأمها إيزابيل البرتغالية ابنة حفيد خوان ملك البرتغال. تزوجت من فرديناند أمير أرغون سنة ١٤٦٩ وعرفا بأميري قشتالة حتى وفاة أخيها هنري الرابع فعرفا منذ ذلك الحين بملكي قشتالة وأرغون توفيت سنة ١٥٠٤.

للتفاصيل ينظر:

Lucio Marineo Siculo, Vidohe Chos de Los Royes Catolicose, Madrid,1882, PP. 233-34: I. De Azcona, Isabel La Catolica, Madrid 1964, P. 87-90: Juan Rodriguez Castellano, Caridad Rodriguez Castellano, Historia de Espona, New York 1933, 44-6.

(١٣) دخل هنري الرابع ملك قشتالة في صراع مع رجال الدين والنبلاء حول ولاية العهد، حيث كان يفضل إسناد العرش إلى ابنته جوانا لرغبة أمها البرتغالية، لذا عقد النبلاء ورجال الدين مؤتمراً في أفيلا سنة ١٤٦٥م قرروا فيه اسناد الحكم إلى أخيه الفونسو، غير أن وفاة الأخير أربك الوضع، لذلك اتجهت أنظار المعارضة إلى إيزابيلا.

عبد القادر أحمد اليوسف، المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(١٤) توماس توركيمادا Torquemada : وهو أبرز أعضاء محكمة التفتيش الأسبانية. ولد سنة ١٤٢٥م وعين مفتشاً عاماً في أسبانيا سنة ١٤٨٣، وقد أجرى العديد من المحاكمات في مدن مختلفة، وكانت وسائله تتميز بالوحشية وتنطوي على أنواع من التعذيب الجسدي ، ويعد من المشجعين على طرد اليهود من أسبانيا، توفي سنة ١٤٩٨.

D.C.C; (Torquemada), P. 983: Encyclopedia Britannica, Vol. 22, Chicago 1965, P. 308.

محكمة ذيرسانت بابلو الراهب الدومنكي أوخيدا Hojeda. وقد سعى الرجلان، ومن معهما، إلى حث الملكة على اتخاذ إجراءات قمعية ضد اليهود، لكن الوقت لم يكن حان برأي إيزابيلا – ذات الحنكة السياسية – التي كانت قد تزوجت من فرديناند الذي كان من أكثر الحكام دهاءً (١٥).

فقد اتبعت إيزابيلا سياسة مركزية شعارها الوحدة السياسية المتمثلة بعرش واحد ودين واحد، وقد اعتمدت من أجل كبح الاضطرابات في قشتالة على منظمة الأخوة المقدسة المعروفة باسم هيرماندادHermandad (١٦) (وهي منظمة مهمتها تنفيذ الأوامر الملكية)، وهناك رماة تابعة لها مهمتهم القبض على المشاغبين والمجرمين في المناطق الواقعة تحت سيطرة الملكة، وكانت العقوبة القصوى هي الموت بالسهام، وهكذا، وتحت القيادة الملكية، أثبتت الهيرماندادكونها أداة فاعلة لكبح النبلاء الذين

---

(١٥) لم يكن هنري الرابع راضياً عن هذا الزواج لذلك وضعت شروط الزواج سراً بين الطرفين، والشروط كانت تنص على أن يتعهد فرديناند بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقر اقامته فيها وأن لا يغادرها دون إذن إيزابيلا ولا يجري أي قرارات أو تعيينات في المملكة دون إذنها، وأن يتابع الحرب ضد المسلمين، لذلك عقد الزواج سراً في بلد الوليد سنة ١٤٦٩، وأرسلت بعدها رسالة إلى أخيها تشرح فيها الأسباب التي دفعتها لعقد هذا الزواج.

محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المصدر السابق، ص ١٣٩.

ويذكر الباحث الأمريكي Simon Dubnov أن، هذا الزواج جرى بعد وفاة هنري الرابع وينكر الباحث تلك الحقيقة التي تجمع عليها أغلب المصادر. ينظر:

Calton J.H. Hayes , Historia Politicay Caltural de La Europa Moderana, Vol .I, Barcelona 1946, P. 316: C. Siliocortes, Isabel La Catolica Fum dadora de Espana, Valladolid 1938, PP.4-45.

(16) Edward Raymond Turner, Europe 1450-1789 , New York 1923, P. 332: G.R. Potter, The New Cambridge Modern History, New York 1961, P. 330: Henry Smith Williams, The Historians, History of the World, New York 1904, P. 131.

كانوا سبباً في إثارة الحرب الأهلية في قشتالة: حيث كان إخضاع النبلاء عملاً أساسياً في السياسة الأسبانية، إذ أصدر الملكان مرسوماً بهدم العديد من القلاع المحصنة، وإبعاد أكبر النبلاء من مناصب المسؤولية في الدولة (١٧).

وبانتهاء الحرب الأهلية سنة ١٤٧٧م، وبعد أن حل السلام جاءت الملكة إلى أشبيلية حيث ظلت لمدة عام، وباعتلاء زوجها فرديناند عرش أرغون سنة ١٤٧٩م (١٨)، بدأت صفحة جديدة من سياسة الملكين الطموحين، وتوجت هذه السياسة باتحاد مملكتيهما تحت تاج واحد.

اتحاد مملكتي أرغون Aragon وقشتالة Castile:

كانت الجزيرة الأيبرية مقسمة على ثلاث ممالك هي البرتغال وقشتالة وارغون، وكانت البرتغال تسيطر على الساحل الأطلنطي لشبه الجزيرة، أما لأرغون فكانت مكونة من بلنسية وأرغون وكاتلونيا، أما قشتالة فكانت بين هاتين المملكتين

---

(17) V.H.A Creen Renaissance and Reformation, London 1970 . P. 61:Williams , Op.Cit, P. 135.

(١٨) ولد فرديناند Ferdinand الكاثوليكي – ابن الملك خوان الثاني سنة ١٤٥٢م – وأصبح ملكا على صقلية سنة ١٤٦٨م ملكاً لارغون سنة ١٤٧٩م، ولنابلي سنة ١٥٠٤م وملكاً لقشتالة منذ سنة ١٤٧٤م قاد حرباً ضد مسلمي مملكة غرناطة حتى سقوطها سنة ١٤٩٢م، توفي سنة ١٥١٦م ينظر:
A. Delatorre, Politica Mediterrana Los Reyes Cotolicos, Madrid 1944, P.68: J.M.Doussina Gue, Politica Internacional de Fornando el Catolica; Madrid 1944: A. Gtmenz Soler Fernando el Catolica, Madrid 1941, PP. 10-18.

التي استطاعت، عن طريق حروب الاسترداد ، أن تمد نفوذها إلى الجنوب حيث لم يبق للعرب سوى مملكة غرناطة (١٩) .

وعلى الصعيد الداخلي كان لفرديناند وإيزابيلا هدفان رئيسان أحدهما تشكيل قوة عسكرية جيدة التدريب تحت السيطرة المباشرة للتاج، أما الآخر فتشكيل دولة غنية موحدة تدر عوائد كبيرة (٢٠) .

أما على الصعيد الخارجي، فقد استهدف فرديناند تحقيق الوحدة الأسبانية والاستمرار في توسيع أرغون باتجاه سواحل البحر المتوسط وتوسيع قشتالة باتجاه المغرب وسواحل المحيط الأطلسي(٢١) .

وقد كانت مهمة حق نوع من الوحدة القومية والسياسية في البلد قد استمرت مدة طويلة لتصبح واحدة من أكثر الأمور صعوبة. فقد كانت هناك سمات مختلفة بين سكان أسبانيا من القشتاليين والكتوليين والأندلسيين .... الخ، وكانت هناك أيضاً

---

(19) Dedieu , Op.Cit ., P. 32.

(20) Creen , Op. Cit ., P. 63: R.R. Planer , A History of the Modern World , New York 1957, P.63.

(٢١) في سبيل ذلك قامت مشاريع عسكرية عديدة، منها الاستيلاء على غرناطة وإخضاع مملكة نافار في شمال أسبانيا التي استطاع فرديناند أن يضمها إلى قشتالة سنة ١٥١٥م. ومن فرنسا حصل الملكان على سيرنادا ورزيلون، وحصلا منها على ميلانو ونابولي وإنشاء أملاك في إيطاليا. ولتعزيز فتوحاته قام فرديناند بتزويج بناته من هنري الثامن الإنجليزي، وفيليب الوسيم ابن ماري البرغندية وماكسيميليان النمساوي، وأعداداً ليوم الاتحاد لكل إمارات شبه الجزيرة الأسبانية، تزوجت ابنة الملك فرديناند من اثنين من ورثة عرش البرتغال تباعاً.

Jean Hippolyte Mariejol, The Spain of Ferdinand and Isabella, New Jersey 1961, P.336.

اختلافات في العرق والدين، فاليهود الذين شكلوا نسبة كبيرة من السكان، والعرب الذين تركزت أعدادهم في الجنوب حيث مملكة غرناطة (٢٢) . وحتى ذلك الوقت كان العرب واليهود يشكلون ، من وجهة نظر الملكين، خطراً على المملكة الموحدة يجب استئصاله، إلا أن قوة غرناطة جعلتهما يتريثان لبعض الوقت في إجراءاتهما.

أما ما يخص اليهود ، فقد استقرت أعداد كبيرة منهم في أسبانيا. ويوضح الدليل الوثائقي والآثاري وجودهم إلى بداية القرن الرابع الميلادي، أي قبل مجيء الغوط الغربيين والعرب(٢٣) .

وتحت حكم الغوط الغربيين لأسبانيا Vis Goths (٢٤) ، عاش اليهود في حرية تامة لكن انتصار الكاثوليكية في أسبانيا، بجهود البابا غريغوري الرابع (الكبير) وتولي ريكارد العرش سنة ٥٨٩م (٢٥) ، أدى إلى تحول الموقف ليعاني اليهود من الاضطهاد والمطاردة لإجبارهم على التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد، ولهذا لم يكن من الغريب أن يتعاون اليهود مع العرب المسلمين في فتح أسبانيا سنة ٧١١م(٢٦) .

---

(22) Turberivlle , OP.Cit., P. 18.

(23) Roth , The Spanish Inquisition , OP.Cit., P. 17.

(٢٤) بشأن دخول الغوط الغربيين إلى أسبانيا، ينظر:

Henry Pirenne , A History of Europe from the Invation to the 16 th Century London 1936, PP. 26-8.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل عن انتشار الكاثوليكية بين الغوط الغربيين، ينظر:

Munro and Sontag, Op. Cit., PP.61-3.

(26) Solomon Grayzel, History of the Jews, New ed, New York 1968, PP. 265-266: Planner , OP ,Cit., P.63.

حيث حرر العرب المسلمون اليهود من عبوديتهم وأرجعوا لهم أملاكهم فمارسوا أعمالهم وطقوسهم وتجارتهم بحرية كاملة أدت إلى تدفق أعداد كبيرة من يهود أوروبا إلى الأندلس وتجمع في قرطبة وطليطلة وأشبيلية وسرقسطة والبيرة، وغيرها من المدن، وانعكس انتعاش وضعهم الاقتصادي على وضعهم الفكري والثقافي، وأخذت مراكزهم الفكرية تنافس المراكز الشرقية، وأصبحت المدرسة التلمودية Yeshivah[٢٧].

في قرطبة من أكبر مراكز اللغة والتعليم العبري[٢٨]. واندمج اليهود بالحياة الأندلسية، وأصبح العديد منهم ملاكين للأراضي ومقرضين للأموال، في حين تفوق قسم آخر منهم في الطب والسياسة [٢٩] ، وهكذا يعد العهد في الأندلس العصر الذهبي لليهود مقارنة بالمراحل السابقة واللاحقة[٣٠] .

فيما نظر المسيحيون الأسبان إلى اليهود على أنهم غرباء، كان التجار والحرفيون يرون فيهم منافسين، كما راح النبلاء يحسدون الثراء الذي أحرزه اليهود.

---

(٢٧) المدرسة التلمودية Yeshivah : وهي معاهد للدراسات الحاخامية، أي لدراسة التراث الديني اليهودي، وهي بديل للهيكل الذي كان المركز، وفي هذه المدارس ألف الحاخامات التلمود والكتب الدينية الأخرى، وكان طالب المدرسة يكرس حياته وفكره لكل ما هو يهودي، ولهذا يمثل طلاب المدرسة التلمودية فلسفة الانفصال بين اليهود والمجتمع الذي يحيون فيه.

د. عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مصر ١٩٧٥، ص ٣٦٠.

(28) William C. Atkinson, A History of Spain and Portugal, London 1960, P.5.

(٢٩) د. محمد بحر عبد المجيد، اليهود في الأندلس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٠-٢٤.

(٣٠) د. عبد الوهاب محمد المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، القسم الأول، الكويت، عالم المعرفة ١٩٨٢، ص ٢١-٢٤.

أما الملوك فقد وجدوا فيهم وسيلة لتعزيز مركزهم بواسطة الضرائب التي كان يدفعها اليهود مباشرة للخزائن الملكية. وقد كانوا يستخدمون اليهود في المناصب الإدارية خصوصاً في جمع الضرائب وإدرة الخزائن (٣١) .

وقد كان للكنيسة أثر بارز في تأجيج الكراهية والحقد تجاه المسلمين واليهود، وتحول كره اليهود إلى واقع ملموس في أوروبا عامة وأسبانيا خاصة، حيث تعرض اليهود لمذابح عديدة في طليطلة وأشبيلية وبلنسية وقرطبة نتج عنه استبعاد اليهود عن المناصب العامة. كما حرمت عليهم التجارة وممارسة الحرف، لذلك هرب العديد منهم إلى مملكة غرناطة في الجنوب.

وقد وسم العام ١٣٩١م ببداية سلسلة من الهجمات على اليهود، ففي أربعاء الرماد (أول أيام الصوم الكبير) بدأ الراهب الدومنكي فيراند مارتينـــز Feerand Martinez بإلقاء الخطب الحماسية – مؤكداً ضرورة تعميد اليهود وتحويلهم إلى المسيحية أو موتهم – التي أدت إلى هياج عام ومذابح ضد اليهود(٣٢) وسرعان ما سرى الهيجان ليعم المدن الكبيرة منها قرطبة وطليطلة وبرجس(٣٣) .

وقد كان لمجازر سنة ١٣٩١م أثر في إصدار مرسوم ١٤١٢ الذي خير فيه اليهود بين اعتناق المسيحية وبين الموت، فدفع ذلك اليهود إلى اعتناق المسيحية تخلصاً

---

(31) Grayzel , OP.Cit.,P .354.

(٣٢) كان النظام القديم المتبع في القمع هو مذابح الشوارع، والذي كان من الممكن أن يسود لو كانت السلطة العليا ضعيفة، ولكن قوة المملكتين امتلكت كل الوسائل لمقاتلة المرتدين على نحو قانوني، ومن أجل تطبيق ذلك كان من الضروري الحصول على موافقة البابا من روما.

John Lynch, Spain Under the Habsburgs, Oxford 1994, P.158: Ptter, OP, Cit., P.335: Planner, OP.Cit., P. 64.

(33)Roth , The Spanish Inquisition , P. 18.

من الموت يطالبون بالتعميد يقودهم أحبارهم وقادهم [٣٤] . ونتيجة لذلك ظهرت حالة جديدة في أسبانيا – في نهاية القرن الرابع عشر – فقد اضطر معظم اليهود إلى اعتناق المسيحية ولكنهم ظلوا يمارسون طقوسهم سراً، فكان اعتناقهم للمسيحية نوعاً من التقية الدينية فحسب [٣٥] ، حيث استمروا بارتياد المعابد المسيحية بين الحين والآخر، وشكلوا اتحادات دينية مسيحية كاثوليكية ظاهرياً، وتحت رعاية قس كاثوليكي، استعملوها غطاءاً لممارسة الشعائر اليهودية التي كانوا يؤمنون بها في الخفاء.

كان المارانوس (Marranos) [٣٦] يهوداً في كل شيء ومسيحيين بالاسم فقط، لذلك أطلق عليهم الأسبان لقب (الخنازير) وأصبح هذا الاسم متداولاً، ومع إزالة كل العقبات الاجتماعية والدينية أصبح التقدم الاقتصادي للمهتدين الجدد سريعاً، حيث تزوج أثرياؤهم من أسمى طبقة نبلاء في البلاد، وكان القليل من النبلاء قادرين على مقاومة إغراء ذهبهم، وقد شغل المارانوس – ومن أقربائهم كذلك – العديد من المراكز المهمة في البلاد، وهذه الظروف نفسها كانت في قشتالة [٣٧] .

وقد نظر الناس بارتياب إلى هؤلاء المارانوس الذين شق بعضهم طريقه إلى المراكز العليا في الدولة أهلتهم لها مقدرتهم وكفاءتهم الإدارية والتنظيمية – بعد أن

---

(٣٤) د. عبد الوهاب محمد المسيري ، الأيديولوجية الصهيونية، ص ٢٤-٢٦.

(٣٥) كان اليهود يأخذون أطفالهم للكنيسة من أجل تعميدهم لكنهم يسارعون على الفور بغسل آثار عملية التعميد، وعندما يذهبون للواعظ لإجراء مراسيم الزواج نجدهم يرتبون مراسيم أخرى في السر فيما بعد.

Roth , The Spanish Inquisition , P.28.

(٣٦) بعد اتحاد مملكتي أرغون وقشتالة وتأسيس محكمة التفتيش، جرت إبادة واسعة لليهود المتحولين، فجردوا من لقب (المهتدين) وأطلق عليهم لقب (مارانوس).

Grayzel , OP ,Cit ., PP. 355-358.

(37) Roth , The Spanish Inquisition , P.28.

ابعدوا عنها بسبب يهوديتهم، وقد قام هؤلاء المتحولون بإثارة الهيداجوس Hidalgos - وهم الأسبان من طبقة النبلاء الدنيا ذات النسب القديم - الذين لم يتمكنوا من كبح مشاعرهم عندما شاهدوا اليهودي يفرض نفسه على المراكز العليا متمتعاً بإمتيازات لا حق له بها، من وجهة نظرهم [٣٨] . ونتيجة لهذا اقترح رهبان قشتالة الدومنيكان إنشاء محكمة تفتيش لمعاقبة المرتدين المارانوس [٣٩] .

ويمكن القول أن السبب المباشر الذي دفع الملكين إلى إقامة محكمة تفتيش في قشتالة "حادثة ليلة الأربعاء" أول أيام (الأسبوع المقدس) وهو العيد الذي يسبق عيد الفصح. ففي تلك الليلة كشف أمر قيام مجموعة كبيرة من المارانوس في قشتالة باحتفال بهيج فيما بينهم، وفسر ذلك الاحتفال بأنه بينة على كفرهم بالدين المسيحي، فالكفار تجمعوا ابتهاجاً بذكرى آلام السيد المسيح [٤٠] وما أن وصل الخبر إلى مسامع رئيس ديرسانت بابلو حتى سارع إلى البلاط ووضع الدليل أمام الملكين اللذين كان رد فعلهما حاسماً، حيث أوعزا إلى سفراء الأسبان لدى البابا للحصول على مرسوم باباوي يخول ملك أسبانيا إنشاء محكمة تفتيش في قشتالة، مستقلة عن روما، وبإشراف مباشر من البلاط، كما صدرت الأوامر إلى مندوزا رئيس أساقفة اشبيلية بإحصاء المارانوس

---

(٣٨) هناك مثال يعبر عن المرحلة وهي تلك الوصية التي وجهها شاعر ضد يهودي منتصر ثري يدعى القونسو فرديناند (المعروف رسمياً بصاموئيل) رفض مساعدة الفقير فانتقم لنفسه عن طريق بث وصية مزيفة تبين أن فرديناند ترك بنساً واحداً للكنيسة المقدسة ومئة دكت (عملة ذهبية أوروبية) لليهود الفقراء ليتمكنوا من الاستراحة يوم السبت بوصفه يوم راحة وعبادة عند اليهود، وأن يسلم قميصه لشماس المعبد في سلامانكا لتلاوة الصلاة لإراحة نفسه وطلب وضع الصليب عند قدميه ونسخة من القرآن الكريم على صدره ولفيفة موسى عند رأسه.

Roth , The Spanish Inquisition , P. 30.

(39) Creen , OP. Cit., P. 64.

(40) Ibid , P. 65.

في اشبيلية ، بعدها قدم مجمع الأساقفة تقريراً للملك والملكة ورد فيه أن اشبيلية والأندلس عامة ملأى بالمارانوس، وبضمنهم عدد من الشخصيات المتنفذة، حاثاً على إنشاء محكمة تفتيش، وأكد قرار المجمع كاهن اعتراف الملكة إيزابيلا توماس توركيمادا.

وقد جدد الملكان طلبهما إلى البابا سكستوس الرابع Sixtus IV [41] لإصدار مرسوم لإنشاء محكمة تفتيش في قشتالة يعين فيه الملك أعضاء المحكمة، وتحول بموجبه الأموال المصادرة من الأشخاص المحالين إلى المحكمة إلى الخزينة الملكية.

وقد أصدر سكستوس الرابع في ١٤٧٨/١١/١م مرسوماً بابوياً خول فيه الملكين الأسبانيين تعيين ثلاثة أساقفة- أو أي أشخاص مناسبين لهذا العمل - على أن لا يقل عمر الواحد منهم عن الأربعين، ويحق للملكين إبعادهم أو استبدالهم، إن اقتضى الأمر [42].

---

(٤١) سكستوس الرابع Sixtus IV يدعى فرانسيسكو ديلا Francesco Della ، ولد سنة ١٤١٤م، في سيلا Sella أصبح بابا سنة ١٤٧١م، توفي سنة ١٤٨٧م.

D.C.C., (Sixtus IV) ,P. 1262.

(42) Creen , OP .Cit .,P. 64.

الفصل الثاني

تأسيس محكمة التفتيش الأسبانية

قبل أن نلج موضوع تأسيس محكمة التفتيش الأسبانية لا بد من إلقاء الضوء على أهم الأهداف التي دعت إلى تأسيسها.

كان هدف الملكين من تأسيس محاكم التفتيش سياسياً ومادياً مغطى بغطاء الدين. فهو سياسي لتشكيل دولة موحدة وإمبراطورية واسعة، بدأت بغزو غرناطة واحتلالها في ١٤٩٢ [1] – وهي السنة التي استطاع فيها كولمبس اكتشاف أمريكا [2] وهو هدف مادي تصادر الأموال والأراضي من المتهم، ولذا نجد أن التلاعب وتلفيق الاتهامات قد تفشى لإبقاء مصدر مادي ينمي هذه الدولة الموحدة [3] .

---

(١)ابتدأ الأسبان بالاستيلاء على المناطق المحيطة بغرناطة ثم عسكروا في جنوب غرب المدينة في مرج غرناطة حيث قاموا ببناء معسكر أطلق عليه (الأيمان المقدس) وبدأوا بمحاصرة المدينة، ولكثرة عدد جيش الأسبان وشدة الحصار الذي دام سبعة أشهر استسلمت المدينة، بعد عقد معاهدة بين الطرفين في تشرين الثاني ١٤٩١، وتضمنت المعاهدة شروطاً عديدة بلغت سبعة وستين حسب المصادر العربية أو ستة وخمسين شرطاً حسب المصادر القشتالية.

عبد الواحد ذنون طه ، المصدر السابق، ص٩.

(٢) استطاع كرستوف كولمبس – بدعم من الملكين – القيام باربع رحلات اكتشف خلالها العديد من المناطق والجزر. كانت الرحلة الأولى سنة ١٤٩٢، والرحلات الثلاث التالية في (١٤٩٤،١٤٩٨، ١٥٠٢) حيث وصل في الرحلة الأخيرة إلى مصب نهر لاوينوكو وسواحل هندوراس من البحر الرئيس لأمريكا الوسطى والجنوبية.

ينظر:

Sir Arthur Helps, The Spanish Conquestin American, Vol .I, London 1900, P.14 : J. Bury , M.A.et al., Vol VIII. Paris 1936, P. 492.

لمزيد من التفاصيل ينظر:

Parry " Colonial Development and Internationaism Outsid Europe, America ": The Cambridge Modern History, Vol. III, PP. 507-16.

(٣) ويدلنا على ذلك قيام الملك فرديناند بتشكيل محكمة باسم (المجلس الأعلى) تشرف على الأموال المصادرة وتتمتع بصلاحيات الاستئناف والنقض، وتتألف من المفتش رئيساً وثلاثة رجال دين أعضاء، اثنان منهما يحملان شهادة في القانون، والغاية من ذلك كله حماية التاج الأسباني عن طريق السيطرة على السيل المادي من مصادرة الأموال.

وقد ذكر المؤرخ لي Lea أن أهم أسباب قيام محاكم التفتيش في أسبانيا هو عدم وجود دين موحد، إلا أن هذا السبب لم يكن وحده كافياً لقيام تلك المحاكم التي امتدت لتشمل طبقات المجتمع الأسباني بمختلف الأديان حيث لم تفرق بين كبير أو طفل أو بين أمير أو رجل عاجز (٤) . كما ذكر المؤرخ الفرنسي رومان Romain : " ... أن الملوك هم السادة الحقيقيون لمحكمة التفتيش الأسبانية، فهم مؤسسوها وهم من احتضنها لغايات مختلفة: شرعية وغير شرعية... من الناحية العملية كانت غايتهم تأكيد سلطانهم المطلق والحصول على المكاسب المادية "(٥) كما برر رومان توجيهات أولئك الملوك ووسائل المحكمة اللاإنسانية بالقول: " بفضل محكمة التفتيش تحررت أسبانيا من أعدائها الداخلين أولاً"، وفيما بعد صانت نفسها من اجتياح المذهب البروتستانتي، الذي فرق فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وأدخلها في حمأة الحروب الأهلية

والاغتيالات والمذابح فهلك فيها أضعاف أضعاف ضحايا محاكم التفتيش (٦) ولكن رومان في تبريره هذا، أغفل حقيقة أن الأندلس كانت في عهد المسلمين في أوج

William H. Prescott, History of The Reign of Ferdinand and Isabella the Catholics, London 1962, P. 152.

(4) Lea, History of Inquisition, P.325.

(5) Georges Romain . L'Inquisition , Paris 1913,P.34.

(٦) إن أقوى حركة دينية إصلاحية واجهتها أوروبا في الثلث الأول من القرن السادس عشر هي البروتستانتية التي قادها كل من مارتن لوثر الألماني وجون كالفن الفرنسي، وقد تزامنت الحركات البروتستانتية مع المعاناة التي كان يحياها الموريسكيون، لذا جرت محاولات للإتصال بقادتها في بحث المضطهدين عن حليف في مواجهة هوس ملوك أسبانيا الكاثوليك.

ينظر:

Max Weber, Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism, New York 1968, P. 221.

علي رومليل، في شرعية الاختلاف، ط٢، بيروت ١٩٩٣، ص ٨٨.

تطورها العلمي والحضاري، وكانت مدارسها العلمية تستقطب طلاب العلم من أرجاء أوروبا للدراسة فيها، وأن المسلمين واليهود والأسبان – الذين أجبروا تحت طائلة التعذيب والموت على التحول إلى المسيحية – كانوا قد عاشوا قروناً في وفاق تام مع بقية الشعب، وقد حدثت الانتكاسة بسقوط آخر المواقع العربية، وسلوك ملوك أسبانيا المتعصب اللاإنساني الذي جعل أسبانيا تفقد أكثر شرائح شعبها نشاطاً"، مما جعلها في خلال أقل من قرنين من أكثر بلدان أوروبا الغربية تخلفاً على الرغم من واردات إمبراطوريتها الاستعمارية في العالم الجديد [(٧)] . هذا ولم يكن المؤرخ الأسباني ليورنت **Liorent** مبالغاً في وصفه للمحكمة بقوله: " إن محكمة تفتيش أسبانيا محكمة ملكية، محققوها موظفون ملكيون يعينهم الملك ويقيلهم متى شاء" [(٨)] . وأكد هذه الصفة للمحكمة المؤرخ الألماني رانكة **Ranke**[(٩)] بقوله : " ... يعتقد المرء أن محكمة التفتيش كانت محكمة دينية، وهذا خطأ لقد كانت محكمة التفتيش ملكية صرفاً" [(١٠)]

أما عن تأسيس محكمة التفتيش، فقد صدرت الأوامر في السابع عشر من أيلول سنة ١٤٨٠ إلى كل من ميغيل دي موريللو **Miguel de Morillo** وخوان

---

(7)Lous Viardot, Arabes Etdes Mores Despagne, Torne. I, Paris 1815,P.393.

(8) J.A.Liorent, Histoire Critique de Les L`inquisition Despagn, Vol . 4, Paris 1818, P. 223.

(٩) رانكة **Ranke**: مؤرخ ألماني ولد سنة ١٧٩٥م، ويعتبر أحد مؤسسي الأسلوب النقدي للبحث التاريخي، له مؤلفات عديدة منها : الشعوب الرومانية والجرمانية، وبابوات روما، والتاريخ الالماني في عهد الإصلاح.

Meyers Neued Lexikon , Vol.11, Leipzig 1973, P. 222.

(10) Quoted in: Romain, Op. Cit ., P. 43.

دي سان مارتن **Juan de San Martin** ، يساعدهما اثنان من الرهبان ، وجميعهم من الأخوية الدومنكية، بتشكيل أول محكمة تفتيش في أشبيلية(١١) ، التي كانت واحدة من المراكز المهمة للمارانوس (١٢). ولإضفاء جو من القداسة والهيبة على مهمة أعضاء اللجنة ، تقرر أن يوافق يوم وصولهم إلى المدينة يوم عيد الميلاد، وأن يستقبلهم موكب رسمي مهيب يليق بأهمية المهمة المكلفين بها.

وقد قام دي موريللو، بصفته المفتش الأول، باختيار دير سانت بابلو **S. Pablo**، وخصص جناحاً كبيراً فيه سجن خاص (١٣) . وسنلقي الضوء على وصف بناء المحكمة ثم على وصف عام للسجون قبل الدخول في تفصيلات البحث – على الصفحات القادمة–.

وصف بناء المحكمة:

اتصفت معظم أبنية محاكم التفتيش بصفات هندسية تكاد تكون متشابهة مع بعض الاختلافات الثانوية، وبصورة عامة فإن شكل البناء مربع أو مستطيل بتكون من ثلاثة طوابق تتوسطه حديقة، ويتكون من عدد من القاعات، خصصت لاستجواب المتهمين (١٤) .

---

(11) Roth, the Spanish Inquisition , P.14.

(١٢) ضمت أشبيلية نسبة كبيرة من المارانوس وكانوا قد أدوا دوراً مهماً في وجوه الحياة المحلية كلها ولا سيما الاقتصادية.

Yitzhak Baer, History of the Jews in Christian Spain , Vol. I, U.S.A. 1966, PP.212-215.

(13) Mariejoi , OP.Cit .,P.46.

(١٤) علي مظهر، محاكم التفتيش بأسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس المفقود (الأندلس) ، مصر ١٩٤٧، ص ١٢٨.

وقد كان هناك طراز هندسي موحد لقاعات المحاكم، إذ ساد الشكل المربع، الذي يتسم بالسعة، بينما ينتصب وسط القاعة عمود من الرخام تثبت فيه حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل يقيد بها المتهمون، بينما يجلس رئيس محكمة التفتيش على دكة عالية – أمام هذا العمود – يطلق عليها عرش الدينونة، ورتبت على جانبي هذه الدكة مقاعد لجلوس القضاة وعددهم ثلاثة، وتتراوح أبعاد القاعات في البناء ما بين ستة إلى تسعة أمتار(١٥) .

ويضم البناء ثلاثة أنواع من السجون: الأول يخصص لحجز الأشخاص الذين لا تكون جرائمهم ضد الدين بل هي جرائم تختص المحكمة بالفصل فيها بطريقة الامتياز، والثاني خصص لسجن موظفي المحكمة الذين يرتكبون في أثناء تأدية وظائفهم جرائم أو أخطاء لا علاقة لها بالدين أو الهراطقة (١٦) . أما النوع الثالث فهو السجون السرية التي خصصت للمتهمين بالهرطقة، وهذه السجون تتصل بغرف التحقيق وقاعات التعذيب مباشرة، وتقع في الطابق الأرضي حيث الزنزانات الرهيبة سراديب تحتوي فجوات تؤدي إلى ممر سري يؤدي إلى الزنزانات جميعها، وقد وضعت في هذه الممرات مقاعد تجعل الجالس قادراً على مراقبة ما يحدث في زنزانتين في آن واحد (١٧) . وبهذه الطريقة يمكن لوكلاء المحاكم مراقبة سلوك السجناء والتنصت.

---

(15) Roth , The Spanish Inquisition , P.85.

(١٦) محمد عبد الله عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، ط١، مصر ١٩٣٠، ص ٢٥

(١٧) في سنة ١٨٠٩ عثر في تلك الزنزانات – التي أغلقت لسنوات والتي فتحها الزوار عنوة_ على عظام بشرية، كما حفر على جدران تلك الزنزانات أسماء بعض السجناء، الذين ربما كانوا قد دفنوا فيها، مصحوبة بأبيات شعر أو أرقام تدل على عدد أيام سجنهم...

Roth , The Spanish Inquisition , P.88.

وصف السجون:

كانت سجون محاكم التفتيش عبارة عن غرف صغيرة الحجم على جانبي ممر ضيق لا يدخلها من النور إلا بصيص من فتحة صغيرة في سقف كل غرفة، وتسد هذه الفتحة ثلاث من قضبان الحديد الغليظة، وكانت هذه الفتحات مخصصة للمسجونين في الزنزانات السفلى تحت الممر في الدور الأسفل.

وقد وصف مؤرخ سجون محاكم التفتيش بقوله: " إن من المستحيل أن يقدر الفكر على تصور حقيقة تلك السجون الضيقة المظلمة الرطبة التي يقضي بها أولئك التعساء شهوراً بل وسنين وقد حرموا الهواء النقي والنور والحركة، ومن الغريب أن تلك السجون كانت بدء العذاب وليس كل العذاب، مع أنها كانت من أكثر وسائل العذاب في العالم هولاً وشدة [١٨] .

أما زنزانات تلك السجون فقد كانت تطلى بالشحم لمنع السجين من مجرد التفكير في محاولة تسلق جدرانها للهروب، فضلاً عن رطوبتها وضيق مساحتها [١٩] .

وقد كان سرير السجين قطعة مستطيلة من الخشب، وفراشه قطعتين من الخيش، ووسادته قطعة مربعة من الحجر، وخصص لكل زنزانة إناءان من الفخار أحدهما لطعامه وشرابه، والآخر لفضلاته[٢٠] .

ويجبر السجين على ارتداء قطعة من القماش الخشن مرسوم عليها علامة الصليب باللون الأحمر. وزيادة في التعذيب النفسي، تضاء الزنزانة بمصباح زيتي أو

---

(١٨) علي مظهر ، المصدر السابق، ص ١١٦.

(١٩) للتفاصيل، المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٢٠) محمد علي السيد قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، القاهرة ١٩٨٥، ص ٧٧.

شمعة لتوحي للسجين بأنه أصبح في عداد الموتى (٢١) . علماً أن تلك الإجراءات والمظاهر مخصصة لمن يسجن احتياطياً، أو أن جريمته المتهم بها لا تصل إلى عقوبة الحد الأقصى (٢٢).

وكانت سجون محاكم التفتيش مليئة بالضحايا البائسين الذين لم يرتكبوا إلا أخطاء بسيطة، مثل عدم إتباع الأناجيل الأربعة، واعتقاد بعضهم بوجوب العودة إلى حياة المسيح الأولى، فقد بترت الأطراف السفلى والعليا لأحد العلماء الأسبان، كما دفنت زوجته في حائط إحدى الكنائس جراء عدم تبليغها عما ذكره زوجها من استحالة "تصديقه أن الله قد تجسد وصلب"(٢٣) .

كما سجنت إمرأة أخرى مع ابنتيها الصغيرتين بتهمة الكفر والزندقة، ووضعت الأم في زنزانة والابنتان في زنزانة أخرى، وقبل تنفيذ حكم الإعدام بالأم سمح السجان لها – بعد توسل وبكاء – أن ترى ابنتيها، ونتيجة خشيته من اعتراف البنتين بالمقابلة، أسرع هو إلى الاعتراف للكاهن، فحكم عليه بأن يقيد، وهو عار، بالسلاسل، وطافوا به في أسواق اشبيلية، وضرب مئتي جلدة وسجن عشر سنوات (٢٤) .

ولا شك أن مثل تلك السجون الرهيبة وما يرافق المحكوم عليه من وسائل تعذيب، تطلبت وجود رجال من نمط خاص ممن فقد جوهر إنسانيته، ولذته معاناة الآخرين. والمثل التالي يعطي لمحة عن ذلك الواقع. ففي إحدى القضايا قبض على أحد

---

(٢١) من العادات المتبعة لدى نصارى تلك المرحلة التاريخية، حيث توقد الشموع في الغرفة التي يسجى فيها جثمان الميت.

(٢٢) علي مظهر، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢٣) علي مظهر، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢٤) المصدر نفسه ، ص١١.

الأشخاص واقم بأنه يتعاطف مع الماسونيين (٢٥) . فأدخل السجن، وبعد أن قضى مدة طويلة فيه أصيب بالسل، وعند سوقه إلى قاعة المحكمة أخذ يسعل فما كان من السجانين إلا أن أوسعوه ضرباً حتى الموت، وذنبه أنه عاود السعال (٢٦) .

وحتى المشتبه بهم لم يسلموا من محاكم التفتيش، فقد كان حكمهم هو السجن لمدة عشر سنوات أو السجن المؤبد، وكان للملك وحدة الحق في إصدار قرار العفو عمن يريد من سجناء محاكم التفتيش، وهذا نادراً ما كان يحدث(٢٧) .

بدأت محكمة التفتيش مهمتها في ملاحقة المتحولين إلى المسيحية، ممن يشك في أخلاصه ، معلنة أن واجب كل مسيحي مخلص أن يشخص هؤلاء ويخبر المحكمة عن أمرهم، ومن أجل ذلك، أصدرت المحكمة منشوراً، من سبع وثلاثين مادة، حددت فيه العلامات التي يمكن بواسطتها تشخيصهم. واختتم المنشور بتحذير شديد للمواطنين من مغبة أية معلومات تخص مثل أولئك الأشخاص.(٢٨)

وما أن تأسست المحكمة في أشبيلية حتى شعر المارانوس بالخطر، وتأكدت مخاوفهم في خلال وقت قصير، لذا حاولوا، اعتماداً على كثرتهم من جهة، وقوة نفوذ بعضهم من جهة أخرى، أن يتصدوا لها قبل استفحال أمرها. فعقد قادة الحركة بزعامة دياغودي سوسان، أكبر أثرياء المارانوس، اجتماعاً سرياً في كنيسة سان سلفاذور،

---

(٢٥) للتفاصيل عن الحركة الماسونية وفلسفتها وأثرها ينظر:

لويس شيخو اليسوعي، أسرار الماسونية، مصر ١٩٦٥، ص ٨: د. محمد علي الزعبي حقيقة الماسونية، بيروت ١٩٧٤.

(26)Lea , History of Inquisition , P. 198.

(27) Ibid., PP. 201-2.

(28) Mariejol , OP. Cit ., P. 46.

وتوصلوا إلى وضع خطة تقوم على مباغتة المحكمة بهجوم مسلح لتصفية أعضائها في يوم محدد [٢٩] . ولكن أمر المؤامرة انكشف عندما باحت ابنة دياغو بسر الخطة لأحد أصدقائها في لحظة عاطفية، والذي سارع بدوره إلى أخبار السلطات الكنيسة، وكان الرد في غاية العنف والوحشية ، حيث جرت اعتقالات واسعة شملت عدداً كبيراً من المارانوس، جرت محاكمتهم بسرعة وصدرت الأحكام بإحراقهم في احتفال جماهيري في أكبر ساحات اشبيلية في السادس من شباط ١٤٨١ [٣٠] . وانتهز أحد أعضاء المحكمة ، وهو الونزودي أوخيدا **Alonsode Hojeda** الجو العاطفي للغوغاء الذين احتشدوا لمشاهدة أول أكبر عملية إحراق جماعية فيما عرف بـــ " حفل الإيمان الأول" **Quemadero** ليلقي خطبة نارية عن خطر " أعداء المسيح" الذين يريدون الإساءة للسيد المسيح والعذراء، وكان لتلك الخطبة تأثير كبير في تأجيج نار الغضب الشعبي ضد المارانوس لسنوات عديدة ([٣١]) . فلم يجد المارانوس سبيلاً سوى الفرار بأرواحهم إلى المدن القريبة، ولكن المحكمة لم تمهلهم الوقت، إذ أصدرت الأوامر إلى كافة نبلاء المدن القريبة من اشبيلية، تطلب إليهم إلقاء القبض على المشتبه بهم وإرسالهم مخفورين إلى مقر المحكمة . وبسبب كثرة عدد السجناء من جراء تسليم الهاربين، اضطرت المحكمة إلى نقل مقرها الرئيس من دير سانت بابلو إلى قلعة تريانا **Triana**،التي تقع خارج مدينة اشبيلية، بعد أن أصبحت زنزاناتها مكتظة بالسجناء . وثمة عامل آخر دفع المسؤولين إلى نقل المحكمة، وهو تفشي وباء الطاعون في المدينة، مما جعل المفتشين ينتقلون إلى آراسينا **Aracena** [٣٢] ، ولكن لم يخفف من احتفالات الإيمان التي أصبحت مشهداً مكرراً،فلا يمر شهر إلا ويقام في الميدان المركزي، وبلغ الهوس حد

---

(29) **Cecil Roth , A History of the Marranos , U.S.A. 1932, P.41.**

(30) Roth , The Spanish Inquisition , P. 45.

(31) Roth ,A History of the Marranos , P.43.

(32) Ibid., PP. 44-5.

إجراء محاكمات للموتى الذين ما إن يصدر الحكم بإدانتهم حتى تنبش قبورهم وتستخرج عظامهم لتحرق مع الأحياء (٣٣) . وقد جرت أكبر عملية إحراق جماعية في الرابع من تشرين الثاني ١٤٨١، حين سيق مائتان وثمانية وتسعون مداناً إلى أعواد المحارق، كما صدر، في اليوم نفسه، حكم بالسجن مدى الحياة على ثمانية وتسعين مداناً (٣٤).

وفي بحثهم عن سبيل للنجاة، استغاث المارانوس بالبابا ملتمسين تدخله في إيقاف المجازر، وحمل وفد منهم هدايا مناسبة إليه في كانون الثاني ١٤٨٢، فبادر البابا إلى الكتابة لفرديناند وإيزابيلا في كانون الثاني ١٤٨٢، معبراً عن عدم موافقته على الوسائل المستخدمة، ولكن لم يكن للرسالة أي أثر على حكام أسبانيا (٣٥).

ومنذ شروعها في العمل في أشبيلية، أصدرت محكمة التفتيش سلسلة متتالية من التعليمات لرجالها والمتعاونين معها، حددت منها السبل الكفيلة بتشخيص اليهودي المتخفي بالنصرانية. ومع اتساع حجم العمل صار جلياً بأنه من الضروري إنشاء محاكم إضافية، وبموجب قرار باباوي في الحادي عشر من شباط ١٤٨٢، رشح ثمانية محققون كان من بينهم توماس توركيمادا **Thomas de Torquemada** راهب اعترافات الملكة إيزابيلا المتعصب، الذي اكتفى بمسكه عصا السلطة من وراء الكواليس، فقامت محاكم تفتيش في كل من قرطبة وجايان وسيوداد ريال وسيغوفيا، وخصصت محكمة سويداد ريال لإقليم طليطلة (٣٦) ، وكانت أول إدانة قد حصلت سنة ١٤٨٤ عندما

---

(33) Roth , The Spanish Inquisition , P. 48.
(34) Ibid., P.50.
(35) Ibid., P. 48.
(36) Roth, The Spanish Inquisition , P. 49.

حكم على أربعة وثلاثين متهماً – ما بين رجل و إمرأة – بالحرق، ومعهم أحرقت بقايا عظام أربعين جثة بعد نبش قبورهم.

وفي سنة ١٤٨٥ نقل مقر المحكمة الرئيس إلى طليطلة، ولا شك أن وجود أعداد كبيرة من المارانوس الأثرياء كان وراء تلك الخطوة، فمصادرة أموال المتهمين كانت إغراء لا يقاوم من العرش ورجال المحكمة. وكما حدث في أشبيلية، حاول المارانوس –في يأسهم –القيام بحركة اغتيالات لأعضاء المحكمة، وانتهت الحركة كسابقتها بالفشل، وفقد عشرات منهم أرواحهم بسببها(٣٧) .

وجرى أول احتفال جماعي للإعدام في طليطلة سنة ١٤٨٦، حيث أحرق خمسة وسبعون شخصاً من كلا الجنسين، وقبل نهاية العام وصل العدد الكلي إلى خمسة آلاف ضحية بينهم عدد من الرهبان(٣٨).

أما في مملكة أرغون، فعلى الرغم من أن المحاكم قد أنشئت منذ القرن الثالث عشر، إلا أنه لم تطبق الإجراءات وفق النمط القشتالي إلا في سنة ١٤٨٤(٣٩) . وفي العام نفسه فتحت فروع للمحكمة في سرقسطة وبلنسية.

وفي السنوات التالية تابعت محاكم سرقسطة نشاطها، وكانت هناك أعداد كبيرة من المارانوس في المدينة، إذ كانت أسماء العوائل الكبيرة من المارانوس تظهر بشكل متكرر في سجلاتها، وحتى مؤرخ البلاط سقط في أيدي المحاكم ومات في السجن (٤٠) .

---

(37) **Ibid., P.50.**
(38) **Ibid ., P. 51.**
(39)**Roth , A History of the Marranos , P. 48.**
(40)**Roth, The Spanish Inquisition , P. 51.**

وفي ١٤٨٨ – وعلى الرغم من المعارضة التي أبداها المارانوس – بدأت النشاطات في برشلونة، حيث كانت محكمة كاتلونيا قد أنشأت في نهاية السنة السابقة، وفي السنة التالية ١٤٩٨ أنشأت محكمة جزر البليار في مايوركا (٤١).

وبلغ العدد الكلي الإجمالي للمحاكم الأسبانية في نهاية القرن الخامس عشر خمس عشرة محكمة تفتيش، موزعة على المدن المهمة، تفاوتت نشاطاتها طبقاً لأعداد المشتبه بهم. ولهذا نرى أن أكثرها نشاطاً كان في مدن الأندلس: مدريد وأشبيلية وطليطلة، حيث تركزت فيها الأعداد الغفيرة من المارانوس والموركسيين (٤٢).

ومن أجل تنسيق أعمالها مع المحاكم المحلية أنشئت في نهاية القرن الخامس عشر هيئة مركزية ممثلة بمجلس أطلق عليه (المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش) **Eiconceijoto La Supremacy Control Inquisition La Supremacy** ، وعرف اختصاراً باسم (المجلس الأعلى **La Superema**) (٤٣) اتخذ من البلاط مقراً بمكانة متميزة في الدولة، ويحتفظ ببريده الذي يقوم بارساله إلى المحاكم الموزعة في المناطق والمدن (٤٤).

وقد استهل المجلس نشاطه في قشتالة، ومنها امتد إلى أرغون وبقية أنحاء البلاد، وكان المجلس مرتبطاً مباشرة بالملك وخاضعاً لأوامره،إذ أن التعيينات كافة في محاكم

---

(41) Roth, A History of the Marranos, P. 53.

(٤٢) هذه المدن : مدريد، برشلونة، قرطبة، ليبيريا، لوغزينو، مرسيه، سنتياغو، أشبيلية، طليطلة . بلد الوليد، سرقسطة، جزر البليار، ماريوكا، وبالما.
Roth, The Spanish Inquisition, P. 73.

(43) S`anehez Rivilla , Eiconsejo de Inquisition (1483-1700), Madrid 1984, P.18.

(44) R. Trevor Davies, The Golden Century of Spain (1507-1621), New York 1961, P.12.

التفتيش كانت تصدر عنه، وهذه السلطة تركزت منذ البداية في يد رئيسه (المفتش العام) توركيمادا الذي يقوم، نيابة عن الملك، بإرسال المفتشين للمحاكم داخل البلاد، وفي ممتلكاتها فيما وراء البحار، ويجتمع المجلس الأعلى يومياً، عدا يوم الأحد، لدراسة التقارير الواردة من المحاكم في أنحاء البلاد، وإصدار التوجيهات المناسبة بشأنها (٤٥).

وفي خلال وقت قصير تغلغلت أجهزة المحاكم في فروع النشاط الإنساني من خلال تزايد أعداد العاملين بها. ومن الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من الأجور الرمزية الزهيدة التي تمنح للمنتسبين إليها في الوظائف الدنيا، كان الإقبال عليها كبيراً، ويعود ذلك أساساً إلى الامتيازات والحصانة التي يتمتع بها المنتسبون إلى تلك المحاكم (٤٦).

ومنذ الأيام الأولى لتأسيس المحكمة، كان عدد موظفيها يتزايد بمرور الوقت لتصبح من أعظم المؤسسات في شبه جزيرة إيبيريا (٤٧). فقد كان هناك العديد من الضباط والموظفين في تشكيل هرمي، فضلاً عن العديد من كتب الإرشاد التي تحتوي على أهم الأساليب والإرشادات والأسئلة التي يستند إليها المفتش أثناء المحاكمة وأنواع الأحكام والعقوبات.

وبصورة عامة يتألف الجهاز الإداري لكل محكمة من ثلاثين موظفاً يتوزعون على قسميها: قسم القلم السري **Secret Office** المسؤول عن إجراءات التحقيق،

---

(45) Abdel – Jelil Temimi, Religion Zdentitet Saurce Documentai red sur les Moriques Andolous , Tunis 1984, P. 54.

(46) Turberville , Op .Cit , P. 47 ;Rivilla , OP .Cit ., P. 12.

(47) Mariejol , OP. Cit ., P. 46

والأحكام الصادرة بحق المتهمين، وقسم الشؤون المالية، المسؤول عن الواردات وأوجه صرفها، ويتألف من ثلاثة فروع، على رأس كل منها موظف كبير(٤٨).

ولم يكن للبابا أية صلاحية للتدخل بالمفاصل الإدارية كافة من تعين أو إبعاد لأي موظف، إذ أن الجهاز الإداري للمحكمة يرتبط بالملك من خلال المفتش العام (٤٩)

هيكلية المحكمة:

١- المفتش العام Inquisitor General, Inquisitor General

يحتل المفتش العام قمة الهرم الإداري لأجهزة محاكم التفتيش، وهو على اتصال مباشر بالملك، يجمع في منصبه واجبات وزير الداخلية ورئيس الهيئة القضائية في الوقت الحاضر ، فضلاً عن مسئولية تشريع القوانين والإرشادات القضائية، وتعيين المفتشين للمحاكم في أنحاء البلاد، بعد مشاورة الملك، والنظر في الإستئنافات، يساعده في ذلك المجلس الأعلى العام الذي يتكون من ستة أعضاء.(٥٠)

تبوأ هذا المنصب في عهد الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا ثلاثة من أشهر المفتشين في تاريخ المحكمة وهم كل من توماس توركيمادا الذي كان رئيس دير أفيلا الدومانيكاني (١٤٨٣-١٤٩٨)، ودياغو ديزا Diego Deza كبير أساقفة

(48)Te mimi , OP. Cit. P. 52.
(49) Lea, History of Inquisition , P. 321.
(50) Rivilla , OP. Cit ., P. 26.

أشبيلية (١٤٩٨-١٥٠٧)، وفرانسيسكو خمنيز Francisco Ximenes [٥١] كبير اساقفة طليطلة (١٥٠٧-١٥١٦).

وكانت هناك شروط يجب توافرها في المرشحين لهذا المنصب، فضلاً عن المستوى الديني الرفيع، إذ يجب أن لا يقل عمر المرشح عن أربعين عاماً، وأن يكون معروفاً بالتمسك الصارم بالمذهب الكاثوليكي [٥٢].

ويتمتع المفتش العام بإمتيازات خاصة فقد كان يركب عربات فخمة تجرها أربعة من الجياد، ويحيط بها عدد كبير من الفرسان شاهرين سيوفهم، وهم في افخر حلة، ويقيم خلال تواجده في المدينة التي تقرر اتخاذها مقراً للمحكمة العليا، في قصور فخمة حيث يخصص جناح كبير منها مقراً لمحكمة التفتيش والسجن، وتخصص غرف خاصة لكبار هيئة المحكمة.

وفي خلال تجواله وتفقده المناطق المختلفة له حرية اختيار المكان الذي يناسبه للسكن، كما يقيم الحرس المرافقون له في البيوت المخصصة من غير دفع أية تكاليف، وامتد هذا الامتياز ليشمل موظفي المحكمة المبعوثين من المفتش العام [٥٣].

---

(٥١) فرانسيسكو خمنيز: ولد سنة ١٤٣٦، التحق بنظام رهبنة الفرانسيسكان، وفي سنة ١٤٩٢ عين مشرفاً روحياً للملكة إيزابيلا، وفي سنة ١٤٩٥ تولى منصب الرئيس لمنظمة رهبان الفرانسيسكان، ومن ثم انتخب مطراناً لطليطلة، توفي سنة ١٥١٧.

محمد عبده حتاملة، التنصير القسري في عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤-١٥١٦)، ط١، عمان ١٩٨٠، ص ٦٩، لمزيد من التفاصيل ينظر:

Fernandez de Retana (P), Cisneros su Siglo, Madrid 1929, P. 222;
Starke (W) , Laespana de Cisneros , Barcelona 1943 , P.5

(52) Turberville , OP. Cit., P. 77.
(53) Dedieu , OP, Cit ., P. 64

ونجد توركيمادا – وهو أول مفتش عام – قد صار مثالاً سار على نهجه كل من خلفه في هذا المنصب. فخلال ترؤسه للمحاكم، امتلك عدداً كبيراً من القصور الفخمة في المدن الكبيرة، وأحاط نفسه بحاشية تزيد على خمسين رجلاً من خصانه، وأقام على حراسته أكثر من مئتي جندي من المشاة، وعشرة من الفرسان يرتدون ملابس خاصة ومدججين بالسلاح(٥٤).

يرافق ذلك الجيش،المفتش العام في تنقلاته،مكوناً موكباً رهيباً يبعث القشعريرة في نفوس سكان المدينة التي وقع عليها اختياره، فيدخلها الموكب- تحف به الرايات والصلبان الضخمة – وتفتح بوابة المدينة على دوي قرع الطبول، وسرعان ما تصبح ثروات المدينة وأرواح سكانها تحت رحمته(٥٥) . وقد مارس توركيمادا مدة عمله، سلطة مطلقة، حيث أصدر سلسلة من الضوابط التي تنظم سير إجراءات المحكمة في السنوات ١٤٨٤ و ١٤٨٨ و ١٤٩٨ عرفت باسم تعليمات محكمة التفتيش **Instruccione Antiguas** ظلت دستوراً يستند إليه من خلفه في المنصب (٥٦).

وقدر لقشتالة أن تشهد ذروة نشاط توركيمادا الذي لم يسلم من جبروته وتعسفه حتى رجال الكنيسة الكبار، فبأمر منه ألقي القبض على كبير أساقفة قشتالة بحجة انحداره من أسرة يهودية، حيث جرد من منصبه ومات في السجن. كما لم تسعف إجراءات أسقف سيغوفيا خوان أرياس دافيلا القاسية في مطاردة المتنصرين

---

(54) Turberville , OP .Cit ., P.79..

(55). Dedieu , OP, Cit ., P. 67.

(56) Turberville , OP. Cit ., P. 54.

واضطهادهم، في أبعاد الشبهة عنه، فقد اهم بقيامه بنبش قبور أجداده لإزالة الدليل على كونهم دفنوا على وفق الطقوس اليهودية، فألقي في السجن ليلقي حتفه(٥٧).

وقد دفعت الصلاحيات المطلقة التي تمتع بها المفتشون العامون – ممتزجة بتعصب لا حدود له – إلى ارتكابهم أعمالاً مروعة حفل بها تاريخ أسبانيا وكانت أحد أهم أسباب تخلفها عن بقية دول أوروبا الغربية خلال العصور الحديثة (٥٨) . ويكفي أن نشير إلى ما قام به المفتش العام خمينيز الذي أمر بإحراق مكتبات وما ضمته من عشرات الألوف من الكتب العربية في مجالات المعرفة المختلفة، لتخسر الإنسانية تراث قرون من التجارب العلمية (٥٩).

٢- المفتش Inquisidor , Inquisidor

تتمثل الهيئة العليا لكل محكمة تفتيش محلية بثلاثة مفتشين أو باثنين منهم ، وهناك صفات يجب أن تتوافر في كل من هؤلاء المفتشين، فيجب أن لا تقل درجته

---

(56) Ibid ., P. 79.
(58) Dedieu , OP. Cit ., P. 64.

(٥٩) كانت سياسة خمينيز في إحراق الكتب بغرناطة في ضمن خطة رسمها لنفسه لإزالة الكثير من المخطوطات العربية القيمة، والوثائق التاريخية، والمصاحف البديعة الزخرفة، وكتب الأحاديث، والآداب، والعلوم وغيرها، حيث نظمت أكداس هائلة منها في ميدان باب الرملة ؟،أعظم ساحات المدينة، وأضرمت النيران جميعاً. إذ إن هدفه كان هو التخلص من أية إشارة إلى اللغة العربية كي لا يستعن المسلمون بمصادرهم الأساسية، كالقرآن الكريم، والسنة مصدر التشريع في الأندلس. للتفاصيل ينظر:
د. محمد عبده حتاملة، التهجير القسري لمسلمي الأندلس، ص ٦٥.
د. محمد عبدة حتاملة، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨م ، ط ١ عمان ١٩٨٢، ص ١١-٢٧.

الدينية عن (أسقف)، وأن يكون حاصلاً على درجة علمية جامعية ويفضل من كان من الأخوة الدومنيكان أو الفرانسيسكان [٦٠].

ويستمد مفتش المحكمة المحلية صلاحياته من سلطة المفتش العام: إذ ينص كتاب تعيينه على : أننا نمنحكم السلطة والصلاحيات للتحري عن كافة الأشخاص مهما كانت صفتهم : رجالاً أو نساءً ، أحياءً أو أمواتاً، حاضرين أو غائبين، وفي المدن كلها. ولكم الامتيازات والصلاحيات كافة [٦١].

ومن هنا نجد أنه ليس غريباً أن عاش المفتشون حياة ترف باذخة من الموارد الضخمة التي كانت تصب في خزائن محاكم التفتيش من الأموال المصادرة.

وقد حددت واجبات المفتش بالإشراف والمراقبة الدقيقة لنشاط المواطنين من خلال التقارير التي يقدمها الوكلاء والمتطوعون عن الأشخاص المشكوك في أمرهم ولا سيما المورسكيين والمارانوس. وهناك جمهرة من الموظفين واجبهم تنظيم قوائم خاصة تحتوي المعلومات المفصلة بكل الأشخاص المشتبه بهم، ويشمل ذلك السجناء منهم [٦٢].

والمفتش هو الذي يصدر الأوامر للقوة الخاصة من جنود المحكمة بالملاحقة، وإلقاء القبض والتفتيش[٦٣].

---

(60) Dedieu , OP. Cit ., P. 62.

(61) Huerga Aivaro , Alumbradose Inquisicion en el siglo XVI, Universitarial Espanola 1992, P. 84.

(62) Turberville , Op . Cit., P. 49.

(63) Dedieu , Op . Cit ., P. 64.

٣- المدعي Claimant , Actor :

في المرتبة الثانية من قمة هرم محكمة التفتيش الأسبانية يأتي المدعي، وهو المسؤول عن توجيه الاتهام إلى المتهمين، بعد دراسة قضيتهم، وتحديد نوع العقوبة المطابقة لنوع " الجريمة" ، وهو في الوقت نفسه المستشار القانوني للمفتشين (٦٤) . وقد استحدث هذا المنصب لأول مرة في المحاكم الأسبانية ، ولم تعرفه محاكم التفتيش البابوية التي كانت إجراءات التنفيذ فيها من مسؤولية المفتش(٦٥).

٤- كاتب الضبط Notario , Curt Notary

أما العضو الثالث في هيئة المحكمة فهو كاتب الضبط، وواجبه تدوين وقائع القضية المعروضة من أقوال الشهود وإجابات المتهمين واعترافاتهم (٦٦). ويدلل على أهمية مكانته أن تعيينه يتم بأمر من المفتش العام، ولهذا فإن من حقه ترؤس الجلسة. وتوجيه الأسئلة إلى المتهمين في حالة غياب المفتش. كما يشرف على تدوين سجلات خاصة بقضايا تحتفظ بها هيئة المحكمة (٦٧).

وفي المراحل اللاحقة، كان عليه الإشراف على تنظيم سجلات مبوبة مستقاة من محاضر الجلسات تساعد المفتش في معرفة دقائق حياة المواطنين في البلدة وعائلاتهم

(64) Ibid ., P. 65.
(65) Turberville , Op . Cit., P. 69; Roth , The Spanish Inquisition , P. 91.

(66) Roth , the Spanish Inquisition , P. 92.

(67) Dedieu , Op .Cit ., P. 65.

وثرواتهم، يرجع إليها عند إلقاء القبض على المشتبه بهم (٦٨) . وعند انتهاء النظر في قضية ما فإن على الكاتب أن يقدم خلاصة باعترافات المتهم وجرداً كاملاً بممتلكاته مع صورة لشجرة عائلته(٦٩)، ويساعد الكاتب عدد من الموظفين يكلفهم باستدعاء الشهود.

٥- المخبرون Detectire , Detectives

ويكون المخبرون الجهاز الرهيب لمحاكم التفتيش، وهم أجزاء من شبكة كبيرة تضم أعداداً كبيراً من الجواسيس الرسميين يحمل كل منهم وثيقة مختومة بشفار محكمة التفتيش، وهذا الختم يمنحه الحق في التحري والمتابعة والتفتيش، وعلى رجال السلطة المدنية والمواطنين تقديم أشكال المساعدة كافة تسهيلاً لمهمته، ومن يتقاعس عن ذلك، أو يشتبه بإخفائه معلومات خاصة بالمشتبه به، أو سهل عملية هروبه، يلقي القبض عليه ويزج في سجون المحكمة تمهيداً لمحاكمته (٧٠) .

وقد أنبث الجواسيس في مرافق الدولة كافة، وخصص بعضهم لمطاردة الفارين، حيث لم تخل سفينة متوجهة إلى العالم الجديد أو الشرق من عدد منهم، وقد

(68) Ibid ., P. 64.

(٦٩) على الرغم من فورة التدمير التي حصلت في وقت إلغاء محاكم التفتيش في القرن التاسع عشر، فإن العديد من السجلات ما تزال موجودة خصوصاً فيما يتعلق بالنشاطات الخاصة لمحكمة طليطلة والمحاكم البرتغالية وأحياناً كانت السجلات تملأ المجلدات، وحتى في بعض الحالات الثانوية حيث لم يكن من غير الممكن أن نجد صحيفة مكتوبة بخط صغير فكانت بذلك منجماً حقيقياً من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

George W. Hoffman, Getzel Pearacy , Spain in the World, London 1962, P. 51; Roth , the Spanish In`uisition , P. 93.

(٧٠) علي مظهر، المصدر السابق، ص ١٠٧.

استطاعت مجموعة منهم مطاردة فارين إلى الفلبين، وإعادهم إلى أسبانيا ليلقوا عقاهم الصارم (٧١) . ولم تكتف محاكم التفتيش بجواسيسها الرسميين، بل ألزمت ، من خلال تعليماتها ، المواطنين كافة بالإبلاغ عن المشتبة بهم تحت طائلة العقاب الصارم(٧٢).

وغالباً ما كان أولئك الجواسيس يندسون في ضمن جماعات (الهراطقة) الفارين، أو قد يتسللون إلى اجتماعاتهم متظاهرين بالحماسة لمبادئهم وتسجيل كل ما يقال خلال تلك الاجتماعات ليشهدوا بعد ذلك في المحكمة بما يدين المتهمين(٧٣) .

وتعتمد المحكمة أقوال المخبرين دليل إثبات لا يدحض، مهما كانت مكانة المخبر (٧٤)، وعند ذاك تبدأ عملية الاستجواب للمتهمين الذين يضطر بعضهم إلى الاعتراف بما لم يقم به تخلصاً من التعذيب الوحشي(٧٥) .

٦- رئيس الشرطة Jefe de Policia , Chief of the Police

أدى توسع عمليات مطاردة واعتقال آلاف الأشخاص المشتبه بهم في أنحاء أسبانيا ، وقيام سلسلة من المحاكم الفردية في معظم مدنها إلى إنشاء جهاز قمعي يتمتع بقوة ضاربة باسم (شرطة محكمة التفتيش) واشتهر شعبياً باسم (جيش الحرب المقدسة

(71) Roth , the Spanish Inquisition , P. 92.
(72) Ibid., P. 93.
(73) Dedieu , OP . Cit ., P. 69.

(٧٤) في إحدى الحالات ، أدت شهادة صعلوك سكير عرف بالغش والتزوير إلى زج منبي ضحية في سجون قرطبة. ينظر:

Dedieu , OP . Cit ., P . 67.
(75) Ibid ., P. 71.

Sacred War Army) على رأسه قائد يعينه المفتش العام الذي يقوم بدوره بتعيين المسؤولين الأدنى في الجهاز (٧٦).

توزع هذا الجهاز على مناطق البلاد كافة، وهو الذراع المسلح لمحاكمها، من واجبه اعتقال المتهمين وحجزهم ومنع الاتصال بهم لحين موعد محاكمتهم، وحماية رسل المفتش العام في أثناء تنقلاتهم حاملين أوامره أو تلقي الرسائل والتقارير من المحاكم الفرعية (٧٧). وكانت الغالبية العظمى من أفراد الشرطة من الطبقات الدنيا في المجتمع، إلا أن الجهاز جذب إليه أعداداً كبيرة من الفئات الغنية التي وجدت في انتمائها إليه ما قد يبعد عنها الشبهات المسلطة على رؤوس الجميع(٧٨). فلا غرو أن يتزايد عدد أفراد الشرطة ليصل في بداية القرن السادس عشر إلى عشرة آلاف رجل (٧٩).

وبهذه القوة العسكرية الضاربة – تسندها الأعداد الكبيرة من أفراد شبكات التجسس – امتدت ذراع محكمة التفتيش لتصل إلى أبعد الأماكن في أسبانيا وممتلكاتها فيما وراء البحار.

٧- الخبير Experto , Expert:

يرتبط بالمحاكم عدد من الخبراء في كل من حقول العلوم والآداب والفنون المختلفة تستعين بهم هيئة المحكمة لفحص وتدقيق الأدلة الجنائية التي تدين المتهم مثل مطابقة الخطوط وكشف التزوير إن وجد. كما يشمل واجب الخبير الرقابة على

---

(76) Ibid ., P. 68.
(77) Ibid ., P. 67.

(٧٨) بسبب اعتماد هذا الجهاز على الطبقات الدنيا – خاصة التي انضمت إليه هرباً من مطاردة محاكم التفتيش أو بسبب العوز المادي – نجده جهاز مهزوزاً لم يؤد أغراضه بالشكل المطلوب، ولكن قوته الحقيقية تعتمد بشكل كبير على إسناد شبكة الجواسيس. ينظر:
Roth , The Spanish Inquisition , P .95.
(79) Dedieu , Op . Cit , PP . 69-90 .

المنشورات والكتب في الداخل أو الواردة من الخارج؟، لمنع تسرب الأفكار الجديدة التي ترى الكنيسة أنها تتعارض مع العقيدة الكاثوليكية (٨٠).

وبدافع من الخوف من تعسف محكمة التفتيش تشدد الخبراء في مجالات اختصاصهم، مما أدى إلى أن تصبح أسبانيا في عزلة مخيفة فسرت لنا تخلفها العلمي والثقافي مقارنة بدول أوروبا الغربية.

الموظفون الآخرون

لم تقتصر هيئة محكمة التفتيش على الكادر الذي سبق ذكره، فهناك مجموعة أخرى مكلفة بواجبات محددة، من أبرزها : أمين الخزانة **Treasurer**، الذي يشرف على الأموال المصادرة (٨١) والأسقف المحلي، الذي يستعين به القاضي مستشاراً لمعرفة تفاصيل محددة عن بعض المتهمين بحكم معرفته، وخبرته بشؤون أبرشيته وسكانها (٨٢).

كما تستعين المحكمة بعدد من الأفراد المستقلين من سكان المدينة لتشكل منهم هيئة محلفين **Jury** لتقديم المشورة في القضايا المعروضة على المحكمة (٨٣)، ولا تخلو محكمة من راهب يكرس مهمته في مرافقة السجان خلال نوبة مروره اليومية على السجناء لتلقي اعترافاتهم طلباً للغفران (٨٤).

---

(٨٠) عن دور الخبراء ينظر:

Ibid ., PP. 90-2; Turberville , OP . Cit ., P. 72.

(81) Dedieu , OP. Cit ., P.65.

(٨٢) ينظر:

Turberville , OP . Cit ., P. 73; Dedieu , OP. Cit., P. 98.

(٨٣) ينظر:

Dedieu , OP. Cit ., P. 69.

(٨٤) خرق معظم أولئك الرهبان التحريم الصارم للعقيدة المسيحية بعدم البوح بالمعلومات التي يقضي بها الإنسان خلال (خلوة الاعتراف) حيث كانت تلك الاعترافات تتخذ دليلاً لإدانته. ينظر:

Roth , The Spanish Inquisition , P. 92.

واستكمالاً للشكلية القانونية وإضفاء الصفة الشرعية على إجراءات محاكم التفتيش كانت المحكمة تنتدب محامين للدفاع عن المتهمين، وكان اختيار المحكمة للمحامي يتم طبقاً لمواصفات خاصة (٨٥) .

أما العنصر المهم الآخر في هيئة المحكمة فهو الطبيب الخاص، وهو المسؤول عن فحص السجناء، وتقدير درجة تحملهم التعذيب الجسدي، وقد يقترح نوعاً معيناً منه تلافياً لوفاتهم . كما أن عليه إنعاش من يفقد الوعي من الضحايا استكمالاً للاستجواب،ومعالجة المعذبين من آثار الدورة الأولى من جلسات التعذيب تمهيداً للدورة التالية لحين الحصول على اعترافاتهم كاملة ، طبقاً لقناعة ورغبة هيئة المحكمة (٨٦) إن صرامة نظام محكمة التفتيش، وهاجس كبار رجالها من تسلل من لا يوثق بهم إلى هيئاتها المختلفة، دفعا المجلس الأعلى إلى إصدار قانون يلزم كافة المتقدمين لأشغال وظيفة في جهاز المحكمة تقديم شهادة موثقة **Impieza** تثبت أن المتقدم نقي الدم **Imala Sangre** أي غير ملوث بدماء إسلامية أو يهودية عن طريق أسلافه من الأب والأم(٨٧) ، وما لبث هذا القانون أن أصبح ملزماً لكل مرشح لمنصب في الكنيسة والدولة في أسبانيا، وحصرت الجهة التي تصدر الشهادة بمحكمة التفتيش(٨٨).

وقد تمتع المنتسبون لمحاكم التفتيش بإمتيازات مختلفة ميزتهم عن بقية المواطنين، فإلى جانب الهيبة والنفوذ والرواتب ، كانوا يعفون من أداء أية أنواع من الضرائب،

---

(٨٥) سيذكر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثالث .

(86) Henry Karmen, Inquisition Espanola , Barcelona 1970. P. 51.

(٨٧) ينظر:

Turberville , Op.Cit P. 72.

(88) Rivilla , OP. Cit ., P. 18

ولهم حصانة قضائية كاملة، فلا يجوز استدعائهم للشهادة أو الأمر بحجزهم بجريمة ما، إلا بعد الحصول على إذن خطي من المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش (٨٩)، ولهذا لم يكن من الغريب أن يتهافت الكثير من النبلاء، والفئات الثرية إلى الانتساب لمحكمة التفتيش للحصول على تلك الحصانة. وبسبب تعسف بعض منتسبي محاكم التفتيش في استغلال مكانتهم وعدم تورعهم عن ارتكاب جرائم مختلفة انهالت الشكاوى من قشتالة إلى المجلس الأعلى يتوسل مقدموها وضع حد لاستهتار أمثال هؤلاء، الأمر الذي أجبر المجلس الأعلى على إصدار تعليمات عممت على المحاكم في ١٦٥٣ نصت على خضوع موظفي محكمة التفتيش للمحاكم المدنية في القضايا الجنائية، على أن تزود تلك المحاكم في المدن الأسبانية بأسماء منتسبي محكمة التفتيش الذين يتمتعون بالحصانة المطلقة (٩٠).

النظام المالي Sistema Financiero , Financial System :

تشكل الأموال المصادرة من المدانين مصدر التمويل الأساس محاكم التفتيش، علماً أن المحكمة تصادر خمس ممتلكات المتهم ساعة القبض عليه، ولا تعاد إليه حتى إن برأته المحكمة – وهذا أمر نادر الحصول – أما المدان، فتصادر أملاكه جميعاً وتصبح من ممتلكات التاج ويخصص جانب منها للمحكمة (٩١).

---

(89) Rivilla , OP.Cit ., P.60.
(90) Turberville , OP.Cit .,PP. 78-9

للتفاصيل ينظر :

Juan Rodviguez, Historia de Espana , Oxford University Press 1939, P. 110.

(٩١) إن وجود أعداد من اليهود الذين كانوا معروفين بثرواتهم المالية الطائلة في أسبانيا شكل العمود الفقري لتمويل المحكمة، فقد استفادت من مصادرة العديد من أملاك المتهمين. ونلاحظ أن المحكمة استهلت أعمالها بعد قيامها بالقبض على الأغنياء في أشبيلية من المارانوس المتنفذين مادياً واقتصادياً.

Ernest Rhys, History of the jews, Vol . 2, Ameriica 1944, P. 118.

للتفاصيل ينظر:

ويدير الشؤون المالية للمحكمة قسم خاص في المجلس الأعلى، ويتولى هذا القسم ثلاثة من كبار الموظفين يترأسهم قاض متخصص بالأمور المالية، وتعيينهم يصدر من الملك، وهدفه من ذلك الإطلاع الكامل على كمية الأموال الداخلة والخارجة لمحكمة التفتيش ليخفظ حصة التاج منها وتسجل في هذا القسم الواردات وأوجه الصرف المختلفة (٩٢).

وإلى جانب الأموال المصادرة، تحصل المحكمة على أموال أخرى من الغرامات المختلفة منها : الغرامات التي تفرض على مقدمي البلاغ الكاذب، أو الغرامات التي تفرض على التائبين أو الذين يتقدمون بالاعتراف بذنبهم طواعية في مدة تحددها المحكمة – بثلاثين إلى أربعين يوماً – ، فالمعترف بذنبه في خلال هذه المدة يقدم جزءاً من أملاكه إلى المحكمة كفارة عن ذلك، وكذلك الذين تبرئهم المحكمة – وهذا نادر الحصول –فعليهم دفع جزء من أملاكهم إلى الكنيسة إذ أن هذا من إجراءات المصالحة مع الكنيسة (٩٣).

ويقوم القسم المالي باستثمار جانب من الأموال التي تصب في خزينة المحكمة في مشاريع مختلفة تدر على المحكمة مورداً كبيراً سواء داخل أسبانيا أو خارجها في مستعمراتها في العالم الجديد.

وكانت للقسم مهام أخرى، فضلاً عن مسؤولية في توزيع الرواتب على الموظفين، ، إذا كان عليه تهيئة قوائم بحصة التاج من الأموال وتقديمها إلى الملك بين حين ،وآخر.

Franz Lan Dsbger , A History of jews Art, America 1914, PP. 91-5;Roth , A History of the Marranos ,P.29.

(92) Dedieu , OP. Cit., P.69.
(93) Tuvberivlle , Op. Cit., P. 57.

ولم تكتف المحكمة بما كان يصب في خزائنها من أموال، فكانت تقوم بإحصاء مالي بين مدة وأخرى لغرض معرفة الأشخاص الأثرياء سواء من المارانوس أو المورسكيين [٩٤] والدليل على ذلك هو ارتفاع موجودات خزينة قشتالة من ٨٨٥,٠٠٠ ريال إلى ٢٦ مليون ريال. ومن أجل الحصول على مزيد من الأموال صدر تشريع يفرض على المزارعين تخصيص جزء مهم من ريع مزارعهم ضريبة لمحكمة التفتيش، ولاستكمال الصورة ، كانت المحكمة تفتعل الكثير من الفضائح والدعاوى الباطلة لأغراض ابتزازية ترمي من ورائها إلى مصادرة أموال أو فرض غرامات [٩٥] .

وقد اتخذت المحكمة من الشهادة التي أصدرتها – والتي تبرهن للمتقدم نقاء دمه من اليهودية أو الإسلام لغرض التقدم إلى أية وظيفة في الدولة أو الكنيسة – مصدراً آخر للحصول على الأموال. فكانت الشهادة وسيلة أخرى من وسائل المحكمة الابتزازية، حيث كثرت الرشاوى، وهذا يذكرنا بصكوك الغفران التي أصدرتها البابوية [٩٦]

(٩٤) لقد شهد المورسكيون أحداثاً مفجعة، إذ تعرضوا للاضطهاد المروع في عهد الملكين فرديناندز وإيزابيلا وذلك أثر سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، ونقض الأسبان للمعاهدات التي كانت بينهم وبين المسلمين. للتفاصيل ينظر:

Carcia Arenal, Los Moriscos , Madrid 1973, PP. -76; General Editors, Morish Aspain , Itally 1963, PP. 160-61;

د. محمد عبدة حتاملة، (ثورة المجاهد المورسكي سليم المنصور في عهد الملك شارل ١٥١٧-١٥٥٦) ، المغربية التاريخية، العدد (٦٥)، ١٩٩٢، ص ١٩، عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس ١٤٩٢-١٦١٦، الجزائر ١٩٨٩، ص ٣٧-٤٠.

(95) Anwar G. Chejne , Histori Ade Espana Musulmana , Marrid 1980, P. 121; H. Laperyre, Geographie de L`espagne Morisque ,Paris 1959., PP. 34-8.

(96) Dedieu , OP .,Cit ., P. 98.

الفصل الثالث

إجراءات محكمة التفتيش

إن أول عمل تقوم به المحكمة، عند قيامها في أية مدينة، يتمثل في قيام المفتش العام بإلقاء موعظة تسمى (قانون الإيمان أو قانون العفو Edict of Faith) ويدعى الأشخاص المشكوك في ممارستهم أفعال الهرطقة في الماضي على التقدم طوعاً والاعتراف بانتهاكاتهم على أساس معاملتهم برأفة، وحددت مدة العفو بثلاثين إلى أربعين يوماً، بعدها يكون المشتبه بهم، الذين لم يتقدموا للاعتراف بجرمهم، عرضة لإجراءات محكمة التفتيش التي تتصف بأشد درجات القسوة[١] . وعلى من تقدموا ، طبقاً لقانون العفو، الإبلاغ عن كل من شاركهم الذنب، أو الذين يعتقدون بأنهم متورطون بأفعال مشابهة، والغاية من ذلك، مساعدة المحكمة على تشخيص النواة الأولى للآثمين[٢].

ويمر إصدار قانون الإيمان بمراحل، ففي البدء يدعى المؤمنون، تحت طائلة الحرمان الكنسي إلى الإبلاغ عن أي شخص يعتقدون، أو يتخيلون، أنه مذنب قبل القيام باعتقاله.

وقد صدر أول قانون للإيمان في مدينة أشبيلية سنة ١٤٨٠ حيث أصدرت المحكمة منشوراً تضمن سبعاً وثلاثين مادة يمكن أن تستخدم لمعرفة اليهودي المتخفي، كما صدرت أوامر صارمة تشمل المواطنين كافة وتطالبهم بأن يكشفوا عما لديهم من معلومات عن أية حالة يمرون بها[٣]، منها مراقبة الناس وتشخيص من يرتدي ثياباً أكثر نظافة في أيام السبت مما يرتدي في بقية أيام الأسبوع، أو من أشعل ناراً في منزله ليلة

(1) Turberville , OP. Cit., P. 47; E. Schafer , Geschichte des Spans chen Portestantismus and der Inquisition , Vol .3, Gutersloh 1902 , PP. 301-02.

(2) Schafer , OP. Cit., P. 303.

(3) Abba Eban , My People , The Story of the Jews, London 1969, P. 191.

السبت، أو من جالس اليهود على مائدة واحدة، أو من يأكل لحم الحيوانات التي يذبحها اليهود، أو من يغسل جثة الميت بالماء الحار، أو من يوجه وجه المحتضر نحو الجدار، أو من يسمي أولاده بأسماء عبرية، وغيرها من الأمور التي كانت في نظر المحكمة أدلة قاطعة على الكفر وكافية ليحكم القضاء بإعدام المتهم (٤).

ومن الأمثلة على قوانين الإيمان ما صدر منها في مدينة بلنسية سنة ١٥١٢م، إذ تضمنت تشخيص الحالات التي تستوجب مثول مرتكبيها أمام المحاكم (٥).

توجيه الاتهام

كانت إجراءات المحكمة طويلة ومعقدة وقد تمتد لسنوات عدة، وقد اتخذت قضايا محكمة التفتيش أشكالاً مختلفة، ويمكن أن نميز ثلاث طرائق للتبليغ عن المشكوك بأمرهم اتبعها المفتشون في تنفيذ أحكامهم (٦).

١ . بداية القضية بتوجيه الاتهام:

تبدأ القضية بأن يتقدم شخص ما متهماً آخر بالهرطقة والإلحاد بشكوى مدونة يقدمها الواشي إلى المحكمة حيث يتحمل عقوبة البلاغ الكاذب في حالة عدم ثبوت

---

(٤) عنان ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، ص ٣٣.

(٥) ينظر نص القانون في الملحق رقم (١) من الكتاب، ص (١٢١).

(٦) كانت المحاكمة تجري لمن يعترف بذنبه بممارسته أي شعائر غير الشعائر المسيحية على وفق المذهب الكاثوليكي، وذلك في أثناء مدة العفو، حيث كان المذنب يذهب إلى الكنيسة ويتصالح مع الكنيسة بعد حصوله على وعد بالعفو التام شريطة التبرع بجزء من أملاكه لخزينة الدولة الملكية وكذلك الابلاغ عمن يشك بأمره.

Dubnov , Vol3 , OP. Cit ., P. 325.

التهمة ومن اثنين من الرجال – غالباً ما كانوا من رجال الدين – على البدء بالتحقيق بعد الإطلاع على نص الاتهام المدون [٧]. يباشر كاتب الضبط بتدوين نوع القضية وتاريخها في اليوم والشهر والسنة، على النحو التالي:" بحضور كاتب الضبط والشهود المثبتة أسماؤهم من مدينة أو أبرشية –، وبحضور الأب الدومنيكي الجليل تم تنظيم مذكرة أولية بالتحقيق مضمونها ______ ثم يدون كاتب الضبط المذكرة بالكامل ______، ويضيف: أجريت بتاريخ ______ في المكان المذكور أعلاه وبحضور الشهود المذكورين في أعلاه أيضاً، وبحضور الموقع شخصياً، كاتب الضبط في المنطقة ______ والكتاب من الديوان المقدس "[٨] .

غير أن العمل (بقانون القصاص) ضد صاحب البلاغ الكاذب ، لم يستمر طويلاً فقد رأى المفتشون أن تطبيقه يحول دون الأخبار عن الجرائم، وعند ذاك لن ينال المجرم عقابه، : مما يؤدي إلى الفوضى واضطراب الأمن في البلاد" ، ولذا تقرر التخلي عن عقوبة المخبر في حال بطلان ادعائه وعدم ثبوت أدلته، لأن ذلك أقل خطراً من ترك الهرطقي حراً. وقد استعيض فيما بعد عن المخبر والمدعي بموظف أدى دور المدعي عرف بالمسؤول المالي الذي يقوم بتوجيه الاتهام والاستقصاء الدقيق و يتضح ذلك في المثال التالي[٩]." أنا أوغستين، المسؤول المالي... أتهم أمامكم سيادة المحقق الموقر المدعو مارتن لوثر، بخروجه على الدين المسيحي وانضمامه إلى الهرطقة المانوية، وبما أنه قد عمد كاثوليكياً، ولهذا اتهمه بالدعوة والكتابة والتأليف وتأكيد المبادىء المانوية المشينة والخاطئة".

(7) Nicolau Eymerich Frabcisco Pena, Lemanual des Inquisition , Paris 1973,.119.
(8) Ibid ., P. 120.
(9) Ibid ., P. 121.

ويبين إيميريك Eymerich إن هذا الأسلوب هو المتبع في تحديد التهمة المنسوبة إلى المتهم، كذلك يؤكد ضرورة الحفاظ على سرية هوية المخبر وعدم كشف أمره [10].

٢- بداية القضية بوساطة التبليغ:

يمكن أن تثار القضية عندما يبلغ شخص عن آخر بتهمة الهرطقة ويصرح بأن دوافعه لعمله هذا هو الخوف من الإثم الذي يلحق بالشخص الذي يعرف الحقيقة ويكتمها، أي بدافع ديني. مما يجعل هذه الصيغة تختلف عن سابقتها، إذ لا يشترط في الأولى بيان دافع الأخبار فيدون المحقق المعلومات التي يدلى بها المخبر بدقة[11].

كما أن هناك فرقاً آخر بين الصيغتين وهو أن القاضي لا ينفرد بعمله في الأولى، بينما يبادر في الثانية إلى استجواب المخبر، وتتضمن الإجراءات الآتية:

١. تبدأ القضية بحضور كاتب الضبط واثنين من الشهود – من رجال الدين أو من الأتقياء – بينما لا يشترط مثل هذا الإجراء في الصيغة الأولى.
٢. يقوم المخبر بأداء اليمين وتدوين شهادته على وفق توجيه أسئلة محددة فمثلاً: كيف حصل على المعلومات؟ وهل حصل عليها بشكل مباشر؟ أو هل حصل عليها من خلال وسيط؟ ومن الشخص الذي أفشى له بها؟ ويسجل كاتب الضبط كل ما يجري.
٣. يستفهم المحقق عن دوافع الأخبار فيما إذا كانت شخصية كأن تكون بدافع الحقد والضغينة والعداوة أو من أجل الواجب.
٤. يؤدي المخبر اليمين على التزام السرية والكتمان بشأن كل ما دار بينه وبين المحقق.

---

(10) Pena , OP. Cit ., P. 121.

(11) Ibid ., P. 122.

٥. يقوم المحقق بتدوين تاريخ التبليغ[١٢].

بداية القضية بالتحقيق :

عندما ينتشر خبر أو إشاعة في مدينة ما، كأن تكون هناك بعض الأعمال والادعاءات المعارضة للدين ، أو يظهر أحدهم تأييده للهرطقي ولا يقدم بلاغ أو شكوى باتهام مثل هؤلاء، فإن المحقق يبدأ بالتحقيق دون الرجوع إلى الهيئة المكلفة بالتحقيق. وتتفق هذه الصيغة والصيغة الثانية في أسلوب التحقيق، وتختلف عن سابقتيها باعتمادها الأخبار عما يعرف بجريمة الهرطقة بشكل عام ووجودها في مدينة ما، إذ يكتفي المحقق بالخبر أو الإطلاع عليه عند زيارته لمدينة ما فيشرع بإجراءات التحقيق دون الحاجة إلى إجراء قانوني محدد[١٣].

وبالاستماع إلى إفادة أشخاص يتسمون " بالنـــزاهة والتعقل" يبدأ المحقق بتدوين القضية بحضور كاتب الضبط واثنين من الشهود وتدوين المعلومات بشأن الاضطرابات العامة.

كذلك يميز هذه الصيغة من غيرها أنها تباشر تحقيقاً إجمالياً بمجرد الأخبار عن ورود خبر أو إشاعة، فالتحقيق فيها عام، على العكس من الصيغتين السابقتين. وبصورة عامة، كان المحقق يتظاهر بالتأني والاحتراز حفاظاً على سمعته ، موحياً للآخرين حرصه على كرامة المتهم [١٤] . وتعد أقوال المبلغ وأقوال المتهم " تحقيقاً تمهيدياً" وأخطر ظاهرة اعتمدها المفتشون، إجبارهم القس على إفشاء المعلومات التي يستمعون إليها من إنسان باح له بها في صومعة الاعتراف بالكنيسة ، مما يعد خروجاً صريحاً على الكاثوليكية.

---

(12) Pena , OP. Cit ., P. 122
(13) Ibid ., P. 123.
(14) Pena , OP. Cit ., P. 125

وبعد أخذ أقوال المُبلغ يكون الإجراء الآخر مخاطبة المحكمة العامة ومحاكم الأقاليم بشأن الشخص المبلغ ضده بصورة سرية، فإذا كان هناك ما يخص المتهم في سجلاتها أرسلته إلى المحكمة ليضم إلى التحقيق التمهيدي، ويعرف هذا بـ (استعراض السجل) بعدها يعرض التحقيق التمهيدي على المدعى ليقرر ما إذا كانت القضية تقع في ضمن اختصاص المحكمة أم لا، وكان قراره يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية (١٥).

واستناداً إلى هذا التقرير، يصدر المفتش أمراً بالقبض على المتهم وزجه في سجن المحكمة السري، لتبدأ بعدها سلسلة من إجراءات المحكمة الطويلة الأجل، والتي قد تمتد إلى سنوات عدة (١٦)، وعند عدم وجود سجن خاص، يقوم المفتش باحتجاز المتهم في السجن المدني، ولكن استخدام السجون التابعة إلى المحكمة هو المفضل دائماً لمنع أية محاولة للفرار (١٧).

واللافت للانتباه أن من تقبض عليه المحكمة يسقط من نظر الرأي العام – حتى قبل إثبات التهمة عليه – ويقع في عزلة مؤلمة، وحزن عميق منتظراً مصيره. لا يعرف حقيقة التهمة الموجهة إليه (١٨) . ويؤكد ذلك المؤرخ لي **Lea** بقوله: "... كان القبض على المتهم في حد ذاته عقوبة خطيرة، ذلك إن أملاك المعتقل تصادر وتصفى على

---

(١٥) عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، ص ٢٤.

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢٥.

(١٧) كان يندر هروب متهم من السجن، فإذا ما استطاع الهرب سبب ذلك أذى بالغاً لأسرته فتصادر أموال عائلته ولا يجد الفارون مكاناً آمناً يلجأوون إليه ليسلموا من شرور رجال التفتيش.

Pena , Op. Cit., P. 123.

وفي سنة ١٥١٢ أصدر الكردينال قراراً يهدد بالموت كل موظف يكتشف أنه تآمر مع أحد السجناء وساعده في الهرب. ينظر:

Roth , The Spanish Inquisition, P. 86.

(١٨) عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، ص ٢٦.

الفوز، وتقطع جميع علاقته بالعالم، حتى تنتهي محاكمته، وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره، وتدفع نفقات سجنه من قيمة أملاكه المصادرة ..."[19] ، وفي حالات كثيرة فإن المدة ما بين الاعتقال والنطق بالحكم تستغرق أربعة عشر عاماً [20] .

وبعد القبض على المتهم يتعرض لثلاث جلسات تحقيق في ثلاثة أيام متتالية تعرف بجلسات الإنذار، وفيها يطلب منه أن يعترف بالتهمة الموجهة إليه، وينذر بالشدة إذا ما قام بالكذب والمراوغة أو الإنكار، أي أن المتهم يجب أن يعترف أنه قام فعلاً بارتكاب ما نسب إليه، لأن محاكم التفتيش، حسب زعمهم لا تقبض على أحد دون وجود الأدلة الكافية لإدانته، وهي فكرة ظالمة وغير منطقية [21] .

وقد كانت الأدلة تختلف اختلافاً كبيراً على وفق الطريقة المستخدمة في التوصل إلى الاعتراف الخطي المقدم للمحكمة. وفي كل الأحوال لم يكن مسموحاً لأي سجين طلب أي شاهد قد يكون ذا فائدة له من الأقرباء والخدم والموريسكيين والمارانوس إذ استثنوا جميعاً، من قبول شهادتهم أصلاً ، مع إخفاء أسماء الشهود عن السجين [22] . ومن جهة أخرى لم يطبق هذا الشرط على الشهود المقدمين من الادعاء، فالدليل الذي يحصل عليه المحقق كان يعد حجة للقيام باعتقال عدد أكبر من الأشخاص.

---

(19) Henry Charles Lea, The Moriscos of Spain, New York 1968, P. 112.
(20) Roth , The Spanish Inquisition , P. 95.

(٢١) عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، ص ٢٦.

(٢٢) لقد كان يعمل بهذه الفقرات في القرن الثالث عشر لتغطية قضايا الأشخاص المتنفذين المتوقع منهم إخافة الشهود إذ لم يكونوا بأمان مع سرية الجلسات.
Roth , The Spanish Inquisition , P. 88.

ويحرم المتهم من حقه في معرفة مصدر الاتهامات والأدلة الموجهة ضده، وهكذا كان المتهم وهو يواجه تهمة قد تقوده إلى المحرقة، يجهد ذاكرته محاولاً استذكار جميع الأشخاص الذين ربما كانوا يحملون ضده ضغينة بغية إبطال شكواهم (٢٣).

وكانت التهمة الموجهة إلى شخص ما تحدد مصيره ونوع عقوبته، إذ أن مجرد الشك بهرطقته يعرضه لأقسى درجات العقوبة. فقد نجد النظافة الشخصية أو الطبخ غير الاعتيادي للأطعمة كلاً منهما كان كافياً لاتهام الشخص بممارسته الهرطقة، ومن هنا كان الحصول على البراءة صعباً(٢٤).

استجواب المتهم

يستجوب المتهم الذي يبلغ بعد أن يؤدي اليمين لامساً بيده اليمنى الكتاب المقدس لتلاوة اليمين أمام هيئة محكمة التفتيش، على وفق الصيغة التالية :" أقسم بالله وبالمسيح، وبالإنجيل الذي المسه بيدي، على أن أقول الحقيقة. ليباركني الرب إذا ما قلت الحقيقة، وليعاقبني إذا حنثت باليمين".

ويتوجب وجود أربعة أشخاص في أثناء عملية الاستجواب وهم : قاضي التحقيق وكاتب الضبط واثنان من رجال الدين (٢٥)، وكل من هؤلاء يلبس قناعاً أسود (٢٦) لبث الرهبة والرعب في قلوب المتهمين ، ويتوجب على المتهم قول كل ما يعرف، والإجابة عن كل الأسئلة الموجهة إليه. وقد تنوعت الأسئلة فهناك أسئلة عامة وخاصة معدة وجاهزة عند المفتش تضع المتهم في زاوية حرجة لا يستطيع مهما حاول أن ينفي التهمة عنه (٢٧).

---

(23) Ibid ., P. 89.
(24) Maisonneve , OP. Cit., P. 93.
(25) Ibid., P. 95.
(26) Pena , OP. Cit., P. 122.
(27) Turberville , OP. Cit., P. 47.

وترى المفتش أحياناً يتخذ أسلوب اللين والتلويح بالصفح وربما كان يأمر للمتهم بوجبة طعام فاخرة في أثناء احتجازه مدة التحقيق، بل ويسمح له أن ينفرد بكاهن كنيسته، وطبقاً للعقيدة المسيحية، قد يفضي المتهم بمكنونات نفسه إلى القس وهو مطمئن أنه لن يبوح بها لأنها من الأسرار المقدسة، وبالتنسيق مع هيئة المحكمة، يطلب القس من المتهم أن يقول له كل شيء متظاهراً بأنه ثقيل السمع ليرفع صوته، فيقوم كاتب المحكمة –من وراء ستار – بتدوين أقواله، ليجبره في النهاية على التوقيع عليها[٢٨] .

ويبدأ المحقق بسؤال المتهم عن أصله ومكان ولادته وإن كان والداه على قيد الحياة أم لا ؟ وعن المكان الذي تربى فيه أو عن الشخص الذي تولى رعايته؟ وأين ترعرع؟ وهل غادر مكان طفولته؟ وعما إذا كان قد تردد على أماكن سرت فيها أحاديث وأقاويل ضد الدين؟ وسبب تردده؟

وهكذا يستدرج المحقق المتهم بالأسئلة حتى يدخل إلى صلب القضية. فيسأله فيما إذا كان قد سمع أحداً يتحدث عن موضوع محدد (وهو الموضوع الذي اتهم به دون أن يعرف) مثلاً عن الكنيسة أو عن الرسل أو عن الخالق[٢٩].

وتتوالى أسئلة المحقق، مع الانتباه إلى ردود الفعل في أثناء الإجابة، ثم يسال عما إذا كان قد تحدث هو نفسه بهذه المواضيع وعن رأيه بها. وربما كان يطلب من المتهم في أثناء الاستجواب تلاوة صلواته الاعتيادية والتعبير عن رأيه بشأن ما يخص الكنيسة الكاثوليكية وإلى من يلجأ للاعتراف بخطاياه ومكان ذلك وزمانه. وهكذا نجد أن طريقة الاستجواب تترك إلى المحقق الذي يعمد إلى تغييرها على وفق طبيعة القضية المطروحة أمامه، فإذا ما أصر على إنكار التهمة الموجهة إليه بعد استجوابه لثلاث

---

(28) Pena , OP. Cit., P. 123

(29) Ibid ., P. 124.

مرات فإنه غالباً ما يترك في السجن مدة سنة كاملة أو أكثر قبل إدخاله إلى جلسة محاكمة أخرى بعد أن تلفق له تهم جديدة وإذا ما أبدى استغرابه وأنكر ما نسب إليه تعقد المحكمة جلسة تضم الشهود، وتقدم له نسخة مكتوب فيها التهم الموجودة إليه جميعها، مع ذكر الأدلة التي كشفت جرمه، ويلزم بالإجابة عن كل تهمة، وإن لم يكن يعرف عنها شيئاً فإنه يسجن، بعدها يكرر المحقق عملية الاستجواب بشأن اعترافاته والأدلة المقدمة ضده، والتي يريد إثباتها عليه ويستمر على هذا المنوال حتى يصل إلى مبتغاه في إدانته رسمياً، ويدون كاتب الضبط هذه المعلومات بحضور شاهدين، وتلحق بالمحضر السابق المتضمن استجواب المتهم.

وكان المحقق يقارن الاستجواب الأول بالاستجواب الذي يليه فإذا ما وجد فرقاً بينهما، يعيده إلى زنزانته ويخضعه إلى أشد صنوف التعذيب، فأي اختلاف في الاستجوابين يعد إدانة بقضية أخرى يستحق عليهما العقاب[٣٠] .

ويُكره السجناء على ارتداء زي خاص خلال عملية الاستجواب، وكان عبارة عن رداء أصفر اللون يرسم عليه صليب أحمر اللون ويعتمر قبعة مخروطية الشكل، ولا تفارق الأغلال المعدنية أرجلهم وأيديهم[٣١].

---

(٣٠) لقد كان المثل الدارج بين رجالات محاكم التفتيش إن البلاء يفتح الأفواه المغلقة على الاعتراف، وكان التعذيب في محاكم التفتيش البابوية يعقب الاشتباه والقبض فوراً.
عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ص ٢٦.

(31) Prescott, OP. Cit., P. 51.

الشهود

أدت وسائل المحاكم وأساليبها اللاإنسانية إلى إرغام الفرد على الشهادة حتى على أقرب الناس إليه، فالأب يشهد على ابنه والابن على أبويه، والزوج على زوجته والمرأة على زوجها وهكذا [٣٢].

وقد حددت سن الشاهد نظرياً بما لا يقل عن أربع عشرة سنة للذكور واثنتي عشرة للإناث، ولكن عملياً وقف أمام محاكم التفتيش شهود أطفال، لم يتجاوز عمرهم العاشرة، للإدلاء بالشهادة ضد آبائهم وإخوانهم، إذ كان يكفي لإدانة المتهم شهادة شاهدين أو ثلاثة مهما كانت صلتهم بالمتهم [٣٣].

ونظرياً أيضاً، كان من الواجب توافر شروط معينة في الشاهد منها أن يكون ذا سمعة جيدة وأن يتمتع بكامل قواه العقلية وأن يكون حاضراً في زمان الجريمة ومكانها، ولكن المتتبع لإجراءات محاكم التفتيش يجد أن كثيراً من الشهود لم تنطبق عليهم تلك الشروط [٣٤].

ويقوم المحقق باستدعاء الشهود لسماع شهاداتهم رسمياً – بحضور الكاتب بعد أداء اليمين – ويكون ذلك بعد الانتهاء من استجواب المتهم وسماع أقواله، فإذا ما بدأ للمحقق أن التهم الموجهة للمتهم هي جريمة لا يمكن تجاوزها عندئذ يشرع باستجواب الشهود على الطريقة التالية [٣٥] :

يسأل المحقق الشاهد – بعد أدائه اليمين – عن معرفته للمتهم وكيف تعرف به، وهل شاهده من قبل؟ وهل تحدث معه؟ وكم مرة حصل ذلك؟ ومن ثنايا إجابات

---

(32) Menedez Ypelayo, Historia de Los Hetero Doxos Espanoles, Madrid 1881, P.32.
(33) Dedieu ,OP. Cit., P. 22
(34) Colmeiro, OP. Cit, P.85.
(35) Pena , OP.Cit., P. 119.

الشاهد يمكن للمحقق معرفة طبيعة علاقته بالمتهم إذا ما كانت عائلية أو صداقة؟ ومعرفته به أكانت منذ أمد بعيد أم منذ وقت قريب؟ وما رأي الآخرين بالمتهم؟ ولا سيما ما يتعلق بأمور الدين والأخلاق.... وما إذا كان قد سمعه أحدهم يتحدث في هذا المكان أو ذاك عن المذهب الكاثوليكي؟ وهل يعتقد أن المتهم عضو في هذه الطائفة أو تلك؟ وهل أن المتهم يناصر أو يتعاطف مع ما يثار من بدع ضد الدين أو هو كاثوليكي صالح؟ وما المعروف عن المتهم. وفيما يخص هذا السؤال يجيب بما متداول بين الناس عامة في شخص المتهم (٣٦).

ويطلب من الشاهد الإجابة عما إذا كان هو نفسه قد سمع أو رأى المتهم يفعل أو يقول ما هو ضد الدين؟ وأين رآه أو سمعه يفعل ذلك؟ وكم مرة تكرر هذا الحدث؟ وبأي طريقة فعله؟ وهل كان يتحدث بطريقة مازحة أو كان هناك جد في الأمر؟ وما الذي جعله يعتقد بأنه يتحدث بالأسلوب الفلاني؟ وهل استمر بالرغم من طلب الآخرين منه التوقف وعدم مواصلة الحديث ؟(٣٧).

وبعد انتهاء كاتب الضبط من تدوين نص الشهادة، يدون اسم الشاهد بالكامل وتاريخ أخذ الإفادة.

---

(36) Ibid ., P. 122.

(٣٧) يركز المحقق فيما يخص إجابة الشهود على السؤال الأخير حيث اعتاد الكثيرون على ترديد الأحاديث والبدع التي تثار ضد الدين من أجل السخرية واضحاك الآخرين، ولهذا كان ينبغي عليه أن يميز هذا النوع من الأحاديث الساخرة وبين المناقشات الجادة، وكانت تفرض على هؤلاء غرامة مادية تجمع وتمنح لأحد أماكن العبادة، أما بالنسبة إلى الأحاديث العابرة المتعلقة بالله والرهبان فلا يمكن له أن تمر دون عقاب ولاسيما إذا جاءت من رجال الدين أنفسهم وأمام العامة.

Ibid., PP 120-121.

وسائل التعذيب

كان التعذيب ممارسة رافقت محاكم التفتيش منذ إنشائها في أسبانيا وأكدها توركيمادا أول مفتش عام، حيث حث على انتهاج هذه الممارسة للحصول على الاعتراف. ويعود " فن التعذيب " إلى القواعد التي سنها نيكولاس ايميريك سنة ١٣٦٠، الذي شغل منصب المفتش العام في مملكة أرغون، والتي كانت من الإتقان حتى أن توركيمادا نفسه لم يضف لها إلا القليل فبينما أكد فيه ايميريك على أساليب فن التعذيب دون نزف دماء لأن على النصراني ألا يعمل على إسالة دم النصراني الآخر، حتى ولو كان متهماً (٣٨) ، نجد أن توركيمادا أباح للمحقق استخدام ما يراه مناسباً لإجبار المتهم على الاعتراف، حتى لو سالت دمائه. ولهذا لم يكن أمراً غريباً أن يموت خلال التعذيب: اختناقاً أو إرهاقاً أو نزفاً أو حتى من الخوف. وفي هذه الحالة، على المحقق الذي تسبب في تلك الوفاة المسارعة للحصول على ما يسمى (براءة ذمة) من المفتش الأقرب.

حقاً عانت البشرية منذ القدم من أساليب وحشية في التعذيب، وتفتقت أذهان فاقدي الإنسانية عن طرق مذهلة في إيذاء الإنسان لمجرد أنه يختلف في فكره أو ممارسته مع السنن التي شرعتها القوى المهيمنة (٣٩).

ولكن زبانية محاكم التفتيش الأسبانية فاقوا في وسائلهم من سبقهم، وأضافوا إليها ابتكارات مهولة ما كان بمقدور متهم الصمود أمامها، فأما أن يموت خلال سير التحقيق، في القاعة الخاصة " قاعة التعذيب" أو يعترف بما يمليه عليه المحقق.

---

(٣٨) عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢١٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢١٨.

تقع القاعة، وهي جزء أساس في بناء المحكمة، تحت الأرض ويتوصل إليها بسلم ضيق مظلم كثير الانحناءات، وكل جزء منها منفصل عن الجزء التالي بباب من خشب ثقيل مصفح بالحديد(٤٠). جدران القاعة مطلية باللون الأسود لتكثيف الظلمة التي لا تنيرها إلا شموع منبثة في جوانبها، وعلى الجدران ثبتت مسامير ضخمة ناتئة، وأرضيتها من خشب هرأ بفعل الرطوبة تتصاعد منها روائح كريهة، وثبتت فيها حلقات ضخمة تمسك بسلاسل حديد لربط المتهمين. وتدلى من سقفها كلاكيب عديدة لتعليق المتهم من يديه أو قدميه، وفي ركن منها برميلان أو ثلاثة مملوءة بالماء تستخدم لإنعاش المتهم في حالة الإغماء(٤١).

وخلال التحقيق، يجلس إلى جانب رئيس المحكمة عدد من الرهبان يقدمون مقترحاتهم بأفضل الوسائل المتبعة في تعذيب المتهم ومن بين هؤلاء راهب يجلس وبيده صليب عليه صورة السيد المسيح مصلوباً مهمته إجبار المتهم على إدامة النظر في الصليب والصورة وهو يجيب على أسئلة المحقق (٤٢).

ولمنع صراخ المتهم من الألم خلال التعذيب ابتكرت آلة لهذا الغرض هي عبارة عن صليب مربع الشكل يوضع في فم المتهم فيمنعه من الحركة(٤٣).

وفي وسط قاعة التعذيب يوجد جهاز يربط السجين عليه فيضغط على صدره إلى حد الاختناق، كما ثبتت أجهزة منها سوط مجدول بقطع الرصاص لتمزيق

---

(٤٠) علي مظهر، المصدر السابق، ص١١١.

(٤١) لمزيد من التفاصيل عن وصف " قاعة التعذيب" ينظر:
علي مظهر، المصدر نفسه، ص ١١٢، عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ٢١٧،
Roth , The Spanish Inquisition ,PP. 106-7.

(٤٢) عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٤٣) عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ٢١٧.

الأجساد، وكماشة لهرس أجزاء معينة من الجسم، وأكليل تبرز منه مسامير حادة يطوق به رأس المتهم يتم تضييقها بدرجات [٤٤].

وهناك آلات أخرى منها آلة لطي الإنسان وكسر عظام ظهره، وهناك المخلعة التي كانت تستخدم على نطاق واسع في أوروبا بشكل عام، وعملها شد المتهم من ساقيه بعد تثبيت جذعه ويزداد الضغط والشد إلى أن تنفصل عظام المعذب، وهناك الكثير من نماذج هذه الآلة في متاحف الشمع في أوروبا [٤٥].

غير أن أغلب الآلات شيوعاً واستخداماً ما يسمى بـ " الرافعة" إذ يوقف المتهم بعد ربط يديه إلى ظهره بحبل يتدلى من بكرة مثبتة في السقف ثم يرفع إلى الأعلى ببطء بحيث تتحمل يداه المربوطتان ثقل جسمه ثم يترل مرة أخرى وتتكرر العملية حتى تتفكك مفاصله، وأحياناً كانت الأثقال تربط بقدمي المتهم خلال رفعه أو أن يبقى معلقاً مدة إلى أن يغمى عليه، وربما أدى ذلك إلى موته [٤٦].

ومن وسائل التعذيب التي شاعت في بداية تشكيل جهاز المحكمة ملء البطن بالماء، إذ يقوم السجان بإحضار كمية من الماء مع قطعة من الخشب، وبعد ربط يدي المتهم بحبال متينة يرفع رأسه ويوضع قمع في فمه، ثم يبدأ بصب الماء، ويراقب العملية طبيب يكون بجوار السجن ليرى إلى أي حد يمكنه أن يتحمل ذلك النوع من العقاب، الذي يؤدي إلى قتله اختناقاً في معظم الحالات، ويراقب المحقق سير العملية وهو يسأل المتهم إن كان يريد الاعتراف أم لا؟وفي حالة الرفض كان يأمر بزيادة صب الماء حتى تنتفخ بطنه وتجحظ عيناه ثم يفارق الحياة ويموت اختناقاً بالماء. وفي كثير من الأحيان كان يوخز المعذب بالدبابيس في أثناء سكب الماء في أعصابه وشرايينه لزيادة

(44) Roth , The Spanish Inquisition ,P. 107.

(٤٥) عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٧.

آلامه[47].ولا تنتهي أساليب التعذيب عند حد، ففي حالات معينة تستخدم الطريقة المعروفة بـــ (Yerope) حيث تربط الأذرع والأرجل على حدة بواسطة حبل مربوط ببكرات مثبتة في زوايا قاعة التعذيب الأربع، وعلى الحبال الأربعة توضع أثقال لجذب أطرافه وهو معلق في الفضاء، مما يتسبب في خلع مفاصله، وكلما أصر المتهم على الإنكار يزداد الثقل على الحبال[48].

أما التعذيب بدفن المتهم وهو على قيد الحياة فقد كان وسيلة مروعة من وسائل التعذيب المبتكرة، فقد كان رجال التفتيش يتخيرون جداراً، في طريق كبير أو ميدان عام، ويحفرون في ذلك الجدار قبراً يوضع فيه المتهم ثم يعاد البناء بعد ترك فتحة صغيرة لكي يراه الناس وهو يموت ببطء[49].

أما النساء اللواتي يقمن بسبب رجال التفتيش فقد كانت لهن طريقة خاصة في التعذيب، وذلك بتعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وأخذها إلى مبرة مهجورة، حيث يجلسونها فوق قبر ميت ذي سمعة سيئة في حياته، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها حيث تربط بسلاسل حديدية بعد فتح شعرها وجعله ينسدل على جسدها، وكانت تترك على هذه الحالة إلى أن تفقد عقلها أو تموت جوعاً ورعباً. وكان رجال التفتيش يقومون بممارسة هذه العملية لاعتقادهم أن الروح الشريرة في المرأة هي التي تتكلم وأن قبور الفاسقين تصبح مرتعاً للشياطين[50].

أما المتهم الذي يصر على إنكار التهم الموجهة إليه فطريقة الحبل هي الوسيلة لإجباره على الاعتراف، وذلك بلف الحبل حول جسمه كله وهو ممدود على دكة تصنع من الخشب بحيث تكون مرتفعة قليلاً، ثم تشد الحبال فتضغط جسمه العاري

---

(47) Roth , The Spanish Inquisition , P. 106.
(48) Ibid ., P. 107.

(٤٩) علي مظهر ، المصدر السابق، ص ٩٢.

(٥٠) اسحق عبيد، المصدر السابق، ص ٩٣.

حتى تنغرز فيه ويسيل الدم، ولا يكتفي بذلك بل يسخن ملقط من حديد على النار ويضغط على أنف السجين للحيلولة دون تنفسه، ويقوم رجل آخر بوضع خرقة مبللة بالماء في فم السجين إلى أن تجحظ عيناه وتظهر علامات الاختناق، ثم يتدفق الدم من أنفه وعينية وأذنيه. وبعد هذه العملية يأمر الكاهن باستخراج الخرقة من فمه ، فيدخل الرجل أصابعه في فم السجين لاستخراج الخرقة بقوة إلى الخارج(٥١) فيخرجها وقد تلوثت بالدماء، ثم يخفف عنه العذاب قليلاً لغرض إعادة استجوابه مرة أخرى وإجباره على الاعتراف فإذا أصر على الإنكار أعادوا العملية حتى يتم استخلاص كافة التفصيلات التي تريد المحكمة معرفتها عن كل ما يخص معارفه والمتعاطفين معه أو الفئة التي ينتمي إليها وأسماء وأماكن الأعضاء الآخرين (٥٢).

أما إذا أصر المتهم على إنكار التهم الموجهة إليه فإنه يربط إلى سلم وهو مدلى الرأس، بعد ربط اليدين والقدمين بإحكام إلى حافة السلم، ثم توضع قطعة من القماش على فمه وقطعتان لسد المنخرين ثم يبدأ بصب الماء في فمه مما يضطره بذلك إلى ابتلاع الماء والقماش ، وكان الإيذاء الحقيقي يبدأ عند تحرك السجين يميناً ويساراً وتتكرر هذه العملية خاصة عند عدم اعتراف السجين (٥٣).

في حالات كثيرة وبالرغم من الحرص على عدم تجاوز التعذيب حد الموت، كان المتهم يفقد حياته، ويتحول إلى رقم في سجلات المحكمة، التي تثبت أنه اعترف بذنبه طواعية دونما إكراه(٥٤)

---

(٥١) علي مظهر، المصدر السابق ، ص ٩٣.

(٥٢) علي مظهر، المصدر السابق ، ص ١١٧.

(53) Roth , The Spanish Inquisition , P. 98;

عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٥٤) ينظر:

Liorent . Op. Cit, P. 218; Roth , The Spanish Inquisition , P. 98.

إن هذه الوسائل المهلكة والمؤذية، التي كانت تتفاوت بين الإحراق ومصادرة الأموال والممتلكات، وإجبار المتهم على لبس الخزي والعار لعدد محدود من السنين، كان الهدف منها – طبقاً لقناعة أعضاء المحكمة – تطهير الناس من رجس الهرطقة، واللافت للنظر أن هذه الوسائل قد تعدت حدود المعقول، إذ عذبت نساء كثيرات لمجرد أنهن جميلات قادرات ، بجمالهن، على إغواء الرجال، وعذبت أخريات لأشياء ليست على جانب كبير من الأهمية، كالذي حدث لإمراة لم تكن قادرة على أكل لحم الخنزير لأسباب صحية، ولكنها عذبت اعتقاداً بأنها تمتنع عن ذلك لأنها من أصل يهودي أو إسلامي (٥٥).

وحتى الموتى لم يسلموا من تعسف المحكمة، فلو حدث واكتشف أن المتوفى كان يمارس هرطقة من أي نوع فإن المحكمة كانت تأمر بنبش القبر، وإخراج الجثة وبعد وضعها في كيس تحرق في الاحتفالات الدينية مع الضحايا الآخرين، ولم ينج الفارون من قبضة محاكم التفتيش، إذ إن عمل تلك المحاكم كان يمتد إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية، وإن لم يتمكنوا من القبض على الهارب فإنهم كانوا ينحتون له تمثالاً يحرق في الاحتفالات الدينية(٥٦).

وفضلاً عن كل هذه الممارسات فقد كانت هناك ممارسات أخرى القصد منها إرهاب المتنصرين الجدد في غرناطة، مثل طرق الأبواب ليلاً والجميع نيام، وسوق المتهمين إلى زنزانات التحقيق، وإخضاعهم للتعذيب دون وجه حق، فضلاً عن لوائح الممنوعات التي كانت تصدر بين آونة وأخرى منها حظر الختان، والوقوف باتجاه القبلة والاستحمام يوم الجمعة(٥٧).

---

(55) Roth , The Spanish Inquisition , P. 104.
(56) Ibid ., P. 103.
(57) Ibid., P. 104.

ولو قارنا بين هذه الأساليب التي اتبعتها المحاكم في أسبانيا بوسائل التعذيب الرومانية، نجد أن الأخيرة تنتهي باعتراف المتهم، في حين أن الأولى كانت تواصل العملية حتى بعد الاعتراف للحصول على معلومات مضافة قد لا يكون المتهم على إطلاع بها، مما يدفعه إلى التسليم المطبق بما يطلبه منه المحقق، بل شمل التعذيب الشهود، في حالة عدم تطابق شهاداتهم(٥٨).

فعلى سبيل المثال حُمل أحد السجناء إلى حفل الإيمان على كرسي لأن قدميه قد أحرقتا حتى العظم. فليس غريباً أن يكون مجرد ذكر التعذيب كافياً لإرهاب السجين، ولأن الاعترافات المأخوذة عن طريق التعذيب باطلة فإنه بعد مرور ٢٤ ساعة كان يؤخذ السجين إلى غرفة خاصة بعيدة عن غرفة التعذيب حيث تتلى عليه اعترافاته التي ذكرها تحت التعذيب، ثم يطلب منه الإعلان والقسم بأنها صحيحة في كل تفاصيلها، وأنه يعترف بها ليس خوفاً من التعذيب بل رغبة في الحقيقة (٥٩) فقد كان التعذيب – في رأيهم – مجرد حث للسجين على الاعتراف بما كان يعرفه المحققون. لأن التوبة مستحيلة والنتيجة تكون الموت في حالة عدم الاعتراف (٦٠).

---

(٥٨) وقع الباحث **Sir Jhon Forlescue** في وهم عند مقارنته بين كل من وسائل التعذيب الرومانية والأسبانية بقوله: " إن محاكم التفتيش الأسبانية كانت معتدلة في بعض جوانبها، أما في روما فكان من المسموح الاستمرار بالتعذيب حتى بعد الحصول على الاعتراف" ينظر:

Sir Jhon Foriescue , Deleudibus Legum Angliae, London 1913. P. 118.

(٥٩) لقد كان هذا الرأي سلاحاً ذا حدين إذ يمكن التخيل بأنه لو كانت الطرق نفسها تطبق على المفتشين لكانت النتائج متشابهة، ففي إحدى الروايات المعاصرة طبقت هذه التجربة، حيث أتهم أحد النبلاء البرتغاليين بتهمة الردة إلى اليهودية فقام النبيل بدعوة المفتش العام إلى العشاء ثم بدأ بتسلية نفسه بتطبيق كل وسائل التحقيق المفضلة لدى المحاكم وأجبر المفتش على توقيع اعتراف منه بأنه كان يهودياً بالسر وبخط يده.

Roth , The Spanish Inquisition, P. 105.

(60) Ibid., P. 109.

الدفاع

بعد استكمال شهادة الشهود وسماع أقوال المتهم يأتي دور الدفاع عن المتهم، وتنحصر مهمة الدفاع عن المتهم في التثبت من صحة الاتهامات الموجهة إليه، ولا تختلف مهمة الدفاع كثيراً عن مهمة بقية أعضاء المحكمة، حيث لم يكن يسمح له بمناقشة الشهود أو دحض شهاداتهم [٦١]. ومن الجدير بالذكر أن تعليمات المحكمة تحظر إنفراد المحامي بالمتهم والحديث معه إلا بحضور المفتش العام ، وبعد أن تكون إجراءات التحقيق وتثبيت الأدلة قد استكملت. وما حضور المحامي في الجلسة النهائية للنطق بالحكم إلا استكمال للشكليات القانونية [٦٢]، والأمر الجدير بالتنوية أن المحكمة لا تسمح للمتهم باختيار محاميه، فهذا واجب المفتش الذي يقدم قائمةً بأسماء عدد من المحامين تختار هيئة المحكمة من تشاء منهم [٦٣] ، ولا يسمح للمحامي بالإطلاع على أوراق القضية،بل يتسلم خلاصة نتيجة التحقيق التمهيدي، وفيها أقوال الشهود، دون ذكر أسمائهم ودون ذكر الظروف التي واكبت القضية وتفاصيلها كما تتضمن الخلاصة قرار الهيئة التحقيقية فيما يخص نوع التهمة والعقوبة المقترحة[٦٤]. وطوال المرحلة الأولى من تأسيس محاكم التفتيش الأسبانية، لا نجد في المصادر ما يفيد بأن محامياً ما تجرأ حقاً في الدفاع عن موكله، خشية من اتهامه بالمشاركة بالجرم والتعاطف مع المتهم [٦٥].

---

(61) Mariejol , Op. Cit., PP. 47-80.

(٦٢) ينظر:

Roth m The Spanish Inquisition, P. 91.

(63) Mariejol, OP. Cit., P. 48.

(٦٤) ينظر: عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، ص ٢٨.

(٦٥) ينظر:

وبعد المرافعة تأمر المحكمة بقراءة شهادة الشهود ومحضر التحقيق على المتهم فقرة فقرة ويسأل عن صحة كل فقرة ثم تجمع الأقوال مع ردود المتهم، وتحال القضية بجلتها الجديدة إلى أعضاء المحكمة ليبدوا رأيهم من جديد بعد أن ضمت أقوال المتهم وكانت هذه الخطوة هي التمهيد إلى الحكم النهائي، وهنا يستدعى المستشار القانوني ليبدي رأيه النهائي مع أعضاء المحكمة، وإن كانت المحكمة تغفل رأيه في أحيان كثيرة.(٦٦)

فإذا صدر القرار بالإدانة كانت للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى Supremaولكنها فرصة مصيرها الفشل في اغلب الأحيان، لأنها لم تكن إلا طعناً أمام الهيئة نفسها التي أصدرت الحكم عليه بالإدانة. وكان للمتهم الحق بأن يلتمس العفو من روما، والتي كانت المحكمة بدورها تجني أموالاً طائلة من هذه الالتماسات التي لا يستفيد منها سوى الأغنياء، وهذا يفسر أن تشريع البابوية لهذا الحق كان من ورائه جمع الأموال الطائلة (٦٧).

وإن حصل أن صدر حكم بالبراءة بعد الالتماس الذي تقدم به المتهم – وهذا نادراً ما يحدث – حينئذ يخفف العقاب من الموت حرقاً إلى عده مذنباً حقيقيا لا يستدعي عقوبة الحرق، وهذا يتوجب على المتهم أن يجثو على ركبتيه طالباً العفو أمام هيئة المحكمة، بعد توقيعه على شهادة التطهر من الذنوب التي تعطى للمتهم تعويضاً لما لحقه من العذاب والألم طيلة المدة التي أمضاها في السجن(٦٨) .

Lea , The Moriscos of Spain, P. 81; Roth, The Spanish Unquisition, P. 91; Mariejol, OP. Cit ., P. 48;

اسحق عبيد، المصدر السابق، ص ١٠٣، عنان، ديوان، التحقيق والمحاكمات الكبرى، ص ٢٨.

(66) Lea, The Moriscos of Spain , P. 81.

(67) Dedieu , OP. Cit.,, P. 92.

(68) Ypelayo , Op. Cit., P. 35.

أما العقوبات التي تصدرها المحكمة بحق المتهمين الذين يبلغ عنهم، وبعد سلسلة طويلة من الآلام فإنها تتراوح بين السجن المؤقت والسجن المؤبد ومصادرة الأملاك أو دفع غرامة تسمى (بالغرامة التكفيرية) ، أو النفي كان غالباً نفياً إلى المستعمرات، والطرد من مدينة معينة إلى أخرى، فضلاً عن هدم أي بيت ضبطت فيه الممارسات الهرطقية.

هذه الأحكام كانت تطبق على الذين تثبت إدانتهم فعلاً، وكانت أكثر العقوبات صدوراً ضد المتهم هي عقوبة الموت حرقاً، ولا يبلغ المتهم بهذا إلا وقت التنفيذ، وهو من أشنع الإجراءات الجنائية التي عرفت على مر العصور. وكانت وجهة التنفيذ موكلة إلى السلطات المدنية (٦٩)، بعد أن تصدر حكمها بالإدانة وعندئذ تعلن المحكمة عما يسمى **Relinquish** ، وتعني أنه مطرود من الكنيسة ولا يستحق رحمتها، وبالتالي فإنها غير مسؤولة عن موته(٧٠) .

أما من يتقدم للاعتراف بعد إعلان قانون الإيمان، وفي خلال المدة المحددة، فإنه يحكم عليه بحكم مخفف يتراوح بين الحجز المؤقت والغرامة المالية، على أن يتعهد خطياً بعدم العودة إلى ممارسة ما يتعارض والعقيدة الحقة(٧١).

وقد جرت أول عملية إعدام بالحرق في أوائل سنة ١٤٨١، حيث أحرق ستة رجال ونساء، حيث أنشئت منصة دائمية **Pyre** خارج حدود اشبيلية خلف الأسوار لتنفيذ هذه العمليات(٧٢).

---

(٦٩) الفكرة في اختيار محاكم التفتيش الإحراق لتنفيذ حكم الإعدام هو زعم الكنيسة بأنها تترفع عن سفك الدماء وأنها بريئة من دم ضحاياها لذلك توكل مهمة التنفيذ إلى السلطات المدنية.

Mariejol , Op.Cit.,P.79.

(70) Turberville, OP. Cit ., P. 79.

(٧١) ينظر:

Dedieu ,OP. Cit., P. 92.

(72) Eban,OP. Cit., P. 191.

ونتيجة لعمليات الحرق فر الكثير من المارانوس إلى المناطق المجاورة [٧٣]، إلا أن ذلك لم يمنع من ملاحقتهم ومصادرة أملاكهم التي جرى تحويلها إلى التاج الأسباني.

وتتابعت عمليات الحرق التي مارستها محاكم التفتيش بشكل منتظم ، وأصبحت من المظاهر الاحتفالية الشعبية التي كان يجري فيها إعلان أسماء المحكومين وتنفيذ عقوبة الإعدام حرقاً. وطبقاً لإحدى التقديرات فقد أحرق ما يزيد عن سبعمائة رجل وإمرأة في أشبيلية بين (١٤٨١-١٤٨٨)[٧٤]، بينما أعيد خمسة آلاف شخص إلى الكنيسة ممن تقدموا طوعاً طالبين العفو.

احتفالية موكب الحريق Quemadero

كانت هناك إجراءات تتبع عند الحكم على مذنب بالإعدام حرقاً، حيث يبقى المحكوم عليه في زنزانة خاصة حتى وقت تنفيذ الحكم، وقبل يومين من بدء (حفل الإيمان) [٧٥] يطاف بالسجناء بشوارع المدينة وأسواقها مكبلين بالأغلال والأصفاد الحديدية تصحبهم فرق الجند الأسبان ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وفي منتصف ليلة التنفيذ يستمع السجناء إلى موعظة القس مصحوباً بجند المحكمة [٧٦] .

---

(٧٣) لقد بدأت الهجرة الجماعية في الأسبوع الأول من تموز سنة ١٤٩٢ وانطلق يهود قشتالة، نافار وبسكاي متوجهين نحو لاريدو، بينما توجه يهود الأندلس نحو ميناء قادش. في حين بحث يهود الارغون وقشتالة عن ملجأ لهم في إيطاليا.

Encyclopaedia Judaica , Vol.15 , Jerusalem 1972, P. 1205.

(74) Ibid .,Vol . 14, P. 1205.

(٧٥) أي تنفيذ حكم الإعدام.

(٧٦) علي مظهر، المصدر السابق ، ص ١١٤.

وفي الفجر يسير السجناء إلى الميدان حفاة الأقدام مرتدين ملابس الإعدام الخاصة -وهي عبارة عن قميص أصفر اللون مغموس بزيت الشحم أو القطران وقد رسمت عليه أفاع، أو تنين، للدلالة على تبعيته للشيطان، كما يعتمر قبعة مخروطية الشكل عليها مثل هذه الرسوم - [77]، عبر جموع العامة ليصلوا إلى باب الكاتدرائية، حيث يوسم كل مدان برمز الصليب مع عبارة " إليك علامة الصليب التي أنكرتها واضعتها" [78].

وعند موضع الحريق كانت تنصب موائد كبيرة من أصناف الطعام والخمور حيث يؤمر السجناء بالجلوس عليها ليتناولوا آخر وجبة، وكان سبب تقديم هذا الطعام هو إيهام الحشود من الشعب بالمعاملة الطيبة للسجناء[79].

بعد ذلك يصل موكب تلاميذ المدارس الأسبانية - وهم يرتدون ثياباً خاصة برفقة معلمهم من رجال الدين - يصحبهم ألف رجل يحملون رايات الكنيسة، وكان إلى جانب كل راية كاهن يترنم بترنيمه حزينة، ثم تأتي مجموعة أخرى تحمل صور القديسين تليها مجموعة السجناء وهم يحملون مشاعل مطفأة مكممة أفواههم لئلا يتكلم أحدهم مع الجموع الحاشدة، ويليهم الحكام والقضاة ورجال بلاط الملك ونائب الملك أو الملك نفسه - حيث كان الملك فرديناند حريصاً على حضور حفلات الحريق -وأفراد الأسرة الحاكمة وأبناء الأشراف بعد صفين طويلين من جند أسبانيا، يلي هؤلاء رجال محاكم التفتيش والرهبان ورجال الدين [80].

---

(77) Mariejol, OP. Cit.,P. 121.

(٧٨) شاهين مكاريوس ، (جان دارك) مجلة الطائف، العدد الأول، القاهرة ١٨٨٦، ص ٩؛.

(٧٩) علي مظهر، المصدر السابق، ص ٥٩.

(80) Roth , The History of the Marranos, P. 49.

ويتقدم هذه الحشود كاهن يرتدي حلة بيضاء ويحمل صليباً أسود في يده، ويترنم بترانيم الموت. وكان يمر أولاً أمام عرش الملك ويعود فيقف في الساحة، ثم يأتي فريق آخر من الكهنة بثياب بيضاء.وكان لرئيس المحكمة مكان مرتفع في وسط الساحة، وكان يأخذ في تلاوة صور الحكم وبصوت جهوري وهو يقول :

" إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالاً ونساءاً لأنهم يهوداً أو مسلمين أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكي فقد استخفوا بالأحكام المقدسة حيث اتخذوا الشيطان – عدو البشر – ولياً وحقروا الكنيسة ولم يأتوا بثمر، ولذا وجب تقطيعهم وإحراقهم بالنار عملاً بقول المسيح له المجد من ليس معنا فهو علينا وإن كل شجرة لا تثمر وجب قطعها وإلقاؤها في النار" (٨١).

وبعد أن ينتهي من تلاوة الحكم يصرخ أحد الكهنة باللاتينية قائلاً: " المجد لسيدتنا والدة الآله ومبارك كل مؤمن طائع" (٨٢) وعندها يمد الناس أيديهم لأخذ البركة، ثم يتقدم الكاهن من المحكومين وبيده صليب من العاج يعرض عليهم التوبة وتقبيل الصليب ويكون الحرق عقاباً لمن يرفض، أما الذي يُقبّل الصليب فإن عليه أن يبوح بكل الأسماء التي يعرفها والتي تبحث عنها المحكمة وأن يصرح بما يفكر به ويعلن توبته واستغفاره، وعندها يعاد إلى السجن ويعاد التحقيق معه للتأكد من توبته. وكان ذلك نادراً ما يحدث (٨٣).

ثم يظهر بعد ذلك وكيل المملكة العام، الذي صادق على حكم الحرق، ويسير معه من يحمل علم الديوان، الذي كان عبارة عن قطعة كبيرة من الحرير حمراء

---

(٨١) مقتبس في: محمد علي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، القاهرة ١٩٨٥. ص ٨٨.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٨٥) علي مظهر، المصدر السابق، ص ١٢٢.

اللون ترتفع على صليب متجهين إلى مكان جلوس الملك، وإذا ما رفعت راية الديوان فإن ذلك يعني الاستعداد لبدء إضرام النار، وفي بعض الأحيان كان رجال التفتيش يطلبون من أقارب المحكومين إضرام النار بأيديهم لحرق أقاربهم (٨٤).

وعند إضرام النار يتقدم الجلاد من المسجونين وهو يقول لهم: " إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكم وهذه الكمامات لأفواهكم". وعند وضع الأطواق يتقدم رئيس المحكمة إلى الملك فيناوله الصليب ويخاطبه قائلاً: " يا صاحب الجلالة بينما تحمل في يدك هذا الصليب المقدس ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا أن تساندوا محكمة التفتيش وأن تثبتوا سلطتنا في هذه البلاد، وأن تقسم يا صاحب الجلالة على أن كل ما تعمله المحكمة وكل ما تجريه من أحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية ومطابق لشرائع بلادكم التي ترمي إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية". وبعد أن يقسم الملك يستمر رئيس المحكمة قائلاً: " ليبارك الله جلالتكم وليمكنك من الحكم طويلاً في الأرض ما دمت سنداً لشرائع محكمة التفتيش وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية " (٨٥).

بعد ذلك يجلس الملك ويتقدم كاتب المحكمة إلى منتصف الميدان - حيث يختارون رجلاً ضخم الجثة جهوري الصوت – فيقف على دكة مرتفعة ويأخذ في إعادة تلاوة الحكم من ورقة في يده، وبعدما ينتهي من ذلك يتقدم المفتش العام ويأمر بترتيل مزمور مطلعه " ارحمني يا ربي كما شاءت رحمتك " فيرتل الناس والكهنة ذلك بصوت عال، ثم يتقدم كاهن للمرة الثانية وفي يده صليب من العاج يعرضه على المساجين لتقبيله قبل تنفيذ الحكم (٨٦).

---

(86) Roth , The History of the Marranos ,P. 48.

(٨٥) مقتبس في : محمد علي قطب، المصدر السابق ، ص ١٠٨.

(86) Roth , The History of the Marranos , P. 127-8.

وإذا ما انتهى الكاهن أضرمت النيران دفعة واحدة بينما يصلي الكهنة ويترغمون، وفي أثناء هذه الأثناء يكون جواسيس المحكمة منتشرين بين صفوف المتفرجين ليسمعوا كل ما هو يمكن أن يقال عن هذه الأحداث المروعة (٨٧).

وبعد عمليات الحرق التي مارستها المحكمة انتشرت أخبار إساءة محاكم أشبيلية لاستعمال صلاحياتها، وهذا مما كان له أثر كبير في إدانة المحاكم، إلى أن وقف الهاربون من أسبانيا عند مكان إقامة البابا الذي وجدوا فيه المدافع عنهم، إذ استطاع الكرادلة هناك من إقناع البابا بالاحتجاج على هذه الوحشية. وفي رسالة بعث بها سكستس الرابع سنة ١٤٨٢م إلى الملكين الأسبانيين منع فيها إجراءات المحكمة التي حكمت على الناس بالتعذيب والموت مهما كان أساس التبليغات التي تدينهم طالما كان الأبرياء هم من يعانون، كما هدد بعزل المحققين (٨٨).

وفي غضون ثلاثة أشهر أصدر البابا مرسوماً أكثر حدة ذكر فيه أنه لم تجر محاكمة عادلة للمتهمين، لذا طالب أن تشمل المحكمة على ممثلين للأسقف المحلي، وأن يمنح المتهمون حق الدفاع عن أنفسهم وأن يستأنفوا الحكم لدى المحكمة البابوية. إلا أن الملك رفض ذلك التدخل جاعلاً الاستئناف أو نقض القرار الصادر عن المحكمة من صلاحيات رئيس أساقفة أشبيلية الذي كان تابعاً للملك (٨٩) .

---

(87) Roth , The History of the Marranose , P. 129.

(٨٨) لقد أجرى تنفيذ أكثر من ألفي عملية إحراق أثناء إحتفال جماهيري في أنحاء شبه الجزيرة وتوابعها وبلغ عدد من حوكموا أمام محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال أربعمئة ألف شخص خلال ثلاثة قرون ونصف من وجودها ، منها ثلاثون ألف عملية إعدام بالحرق. وحتى القرن السابع عشر الذي شهد تضاؤلاً في أعمال محاكم التفتيش، التي نجحت بعملها حتى أصبح من الصعب العثور على ضحية واحدة إلى أن ألغيت المؤسسة سنة ١٨٣٤.

Eban , OP. Cit., P. 191.

(89) Prescott , OP. Cit ., P. 133.

وفي نهاية سنة ١٤٨٤ عقد مؤتمر في أشبيلية ترأسه المفتش العام توركيمادا ضم محققي محاكم التفتيش الأسبانية جميعهم، وفيه حددت إجراءات التحقيق ودراسة وتحسين الطرق المتبعة في ذلك (٩٠).

فقد أكد بدء إجراءات المحكمة فوراً عند التبليغ عن أي شخص ، فضلاً عن أنه ليس من حق أفراد عائلة المتهم أو أقربائه تولي أي منصب في الدولة أو ممارسة بعض المهن مثل الطب والصيدلة أو وراثة الأملاك التي تصادر لصالح الملك، فضلاً عن منعهم من القيام بعمليات تجارية وعدم السماح لهم بالتقدم بالشهادة في المحاكم (٩١)، وكذلك مصادرة المنــزل الذي كان يأويهم، أما إذا كان المترل الذي يأوي المتهم مؤجراً فعندئذ يغرم المستأجر عشرة باونات من الذهب أو يجلد علناً . أما من كان يأوي متهماً فعقوبته مصادرة جميع أملاكه لصالح الملك(٩٢).

وفي سنة ١٤٩٢ أصدر الملكان الكاثوليكيان قراراً بطرد كل اليهود من ممالك أرغون وقشتالة ممن يرفضون اعتناق المسيحية على وفق المذهب الكاثوليكي ومنحهم مدة ستة أشهر لبيع كل ممتلكاهم (٩٣).

وبما أن اليهود كانوا يدركون اهتمام الملك بشكل كبير بالعوائد المالية، فقد عرضوا عليه مبلغ مقداره ثلاثون ألف دوقية ذهبية في حال إلغائه القرار، مما جعل فرديناند على وشك قبول طلب اليهود بسبب هذا العرض المغري، غير أن طبقاً لما تذكر المصادر أن رئيس المفتشين توركيمادا اندفع إلى الملكين متشبثاً بالصليب وصاح بهما قائلاً : " لقد باع الاسخريوطي [يهوذا] المسيح مقابل ثلاث قطع فضية، وها

(90) Liorent , OP. Cit., P. 341.
(91) Ibid ., P. 300.
(92) Jams Havery Robinson, Medieval and Modern Times, New Tor; 1931, P. 190.
(93) Liorent , OP. Cit., P. 431.

أنت توشك على بيعه مقابل ثلاثين ألف: ها هو المسيح امض قدماً وبعه : وعندها وضع توركيمادا الصليب وأسرع مغادراً القصر(٩٤) .

لقد كان المشهد مؤثراً ، ولا سيما في المملكة، مما أدى إلى فشل عرض الموفدين المارانوس. في نهاية نيسان أرسلت الرسائل إلى أنحاء المملكة تعلن منح اليهود مدة ثلاثة أشهر يتوجب خلالها إنهاء أعمالهم ومغادرة أسبانيا، وأن عقوبة الموت ستطبق على كل من يخل بهذا الأمر، إلا إذا اعتنق المسيحية (٩٥) .

ولقد حظر حمل الذهب والفضة وكان عليهم الاستعجال ببيع ما يملكون، مما أدى إلى استغلال ظروفهم واستحصال ما يملكون بأدنى الأسعار(٩٦).

وهكذا طردت أسبانيا مئات الآلاف من المارانوس، وكانت هذه المسألة ذات وقع كبير على المارانوس من الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

ويشير أحد رعاة الكنيسة في الأندلس المدعو لوس بلاسيوس Los Palacios الذي عاش في تلك الحقبة التي كانت تعج باليهود، إلى الدوافع الحقيقية لهذه الملاحقة المستمرة، إذ يقول " كان أبناء هذا الجنس الملعون [ويقصد اليهود]

---

(٩٤) قبل صدور قرار الطرد كانت محاكم طليطلة قد أعادت إحياء (نظام العزل) القديم كما منح المارانوس مهلة شهرين لبناء مساكنهم ومعابدهم وإذا سكن المارانوس في حي من أحياء المسيحيين سيتعرض إلى مصادرة أملاكه ويكون تحت رحمة التاج الأسباني. فقد ورد في هذا الشأن ما ينصه: " لقد قررنا عزل اليهود عن كل المدن وتخصيص مساحات معينة يمكن لهم الإقامة فيها وفقاً لتقرير المحققين يتضح ما تعرض له المسيحيون من أذى كبير بسبب اتصالهم باليهود الذين يسعون إلى إقناعهم لاعتناق ديانتهم، وإذا لم ينفذوا الأمر فسيحكم عليهم بالموت وتصادر أملاكهم دون أية محاكمة...".

J .H .Elliott m Imperial Spain , London 1919, P. 18.

للنص عن طرد اليهود أنظر الملحق رقم ٢، ص ١٢٠ من الكتاب.

(95) Mariejol , OP. Cit., P. 54.

(٩٦) حيث كان المنزل يباع مقابل حمار ومزرعة العنب مقابل الأقمشة أو البياضات.

Mariejol , OP. Cit., P. 55.

غير راغبين بتعميد أبنائهم كما كانوا يطبخون طعامهم بالزيت بدلاً من شحم الخنزير، كما كانوا شعباً طموحاً يفضلون أن يعتاشوا على التجارة والمقايضة بدلاً من الاشتغال بالحرف اليدوية والفنون الأخرى، وهم بحيلهم الخبيثة تمكنوا من جمع ثروات ضخمة ساعدهم على المصاهرة مع العوائل المسيحية النبيلة (٩٧).

وقبل أن يطول المقام حولت محاكم التفتيش اهتمامها إلى المسلمين بعد احتلال غرناطة، وقد غادر الملكان الكاثوليكيان غرناطة وتركا الشؤون السياسية والدينية إلى الكونت أنييغولوبث دي مندوسا وإيرناندو دي زافرا الذي كان سكرتيراً للملكين، والأب إيرناندو أسقف أبله (٩٨).

وقد تمكن هؤلاء في بداية الأمر من إدارة شئون البلاد، حسب التعليمات التي كانوا يتلقوها من الملكين، وذلك تنفيذاً لمعاهدة الاستسلام، وكان هؤلاء على اتصال سري بالبابا الاسكندر السادس(٩٩).

ثم أخذت سياسة التسامح التي طبقها هؤلاء بالفتور، حيث عجزت عن تنفيذ الشروط المتفق عليها في معاهدات الاستسلام وعدت باطلة المفعول، إذ فرض على المسلمين أحد أمرين: اعتناق المسيحية أو التهجير القسري.

ولكي يسهل على الأسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم الإسلامية والقضاء عليهم، أصدر الملكان أمراً بإحراق الكتب الدينية بما فيها كثير من الوثائق والمخطوطات التي تتعلق بالدين الإسلامي (١٠٠).

---

(97) Quoted in : Prescott , OP. Cit ., P. 133.

(٩٨) حتاملة، التنصير القسري، ص ٥٩، محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، عمان ١٩٧٧، ص ٥٣.

(٩٩) كردينال بلنسية وأسقفها السابق الذي كان على إطلاع مسبق بمجريات الأحداث في شبه إيبيريا. حتاملة ، التنصير القسري، ص ٦٠.

ومن أجل الإسراع بعملية تنصير المسلمين، أرسل الملكان كثيراً من الكهنة والقساوسة والرهبان إلى غرناطة، بهدف التبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي . وفي حالة عدم تحقيق الغاية المنشودة عندئذ تنفذ عملية التنصير القسري بالعنف والمطاردة.

ومن الأساليب التي اتخذت ضد مسلمي الأندلس أخذ أطفالهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥-١٢ سنة وتربيتهم في المؤسسات المسيحية، وعندما يكبرون كانوا يستعملون أداة للتجسس، عندما يعادون إلى أهاليهم ليخبروا بكل صغيرة وكبيرة، تدور في بيوت آبائهم، ثم يقوم الأسبان بإنزال أقصى العقوبات بالمسلمين وهي الموت حرقاً.

ومن أجل تنفيذ سياسة تنصير المسلمين أرسلت الملكة إيزابيلا في طلب ثلاثة أشخاص، مانحة إياهم مناصب في البلاط الملكي وهم:- أنييغولوبث دي مندوسا كونت تنديا، وهو القائد الأول وماريشال غرناطة، والأب إيرناندو دي تالا فيرا مطران غرناطة، والأب خمنيز دي سيسنيروس مطران طليطلة، وكان هذا الأخير من أبرز من نفذ أبشع المذابح بحق المسلمين في الأندلس[١٠١].

وأول خطوة لتنفيذ ذلك هو حرمان المدجنين [١٠٢] المقيمين في أنحاء أسبانيا من شراء الأراضي والعقارات، وذلك لتسهيل تفريقهم بالقوة، وتوطين الأسبان في أماكنهم ومزج العناصر الإسلامية بالعناصر الأسبانية لكي يفقدوا كل مقومات وجودهم من شعائر دينية ولغة عربية، وغالى الأسبان في تعصبهم وكرههم للمسلمين،

---

(١٠٠)تقدر المصادر أن عدد الكتب التي أحرقت بمليون وخمسمائة ألف كتاب ديني.

المصدر نفسه، ص ٦١.

(١٠١) حتاملة ، التنصير القسري، ص ٦١.

(١٠٢) المدجنون: هم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين الأسبان قبل سقوط غرناطة وانتهى بهم الأمر إلى مصير الأندلسيين المورسكيين.

وأصدروا مرسوماً يحرم على مدجني الأندلس ونسائهم وأطفالهم، أن يغتسلوا أو يستحموا في أي مكان خصص للاستحمام.

كما حرم عليهم حمل السلاح، وتكلل ذلك بفرض ضرائب باهظة دون غيرهم من الناس، وفي سنة ١٤٩٨ أجريت عملية عزل العناصر الإسلامية عن المجتمع الأسباني، ووضعوا في أماكن معينة، تحت حدود واضحة المعالم بين السكان الأسبان (١٠٣).

وكان أي خبر يرد محاكم التفتيش – من المسلمين الذين نصروا قسراً من أي شخص مسيحي، أو من أبناء المسلمين الذين تربوا في أحضان الكنيسة على تعاليم المسيحية- باقام أي مسلم أو عائلة مسلمة، مارست شعائرها الدينية الإسلامية، أو استعملت اللغة العربية، أو حتى اتجهت إلى مكة المكرمة لأداء الصلاة، يعد جريمة كبرى لا تغتفر توجب إنزال أقصى درجات العقوبة، وهي الموت حرقاً (١٠٤).

ونذكر على سبيل المثال، إجبار الفتيات المسلمات على الاقتران برجال من النصارى، وكذلك إجبار المسلم على الزواج بنصرانية ، من أجل القضاء النهائي على تعاليم الإسلام(١٠٥).

ويبدو أن الملك فرديناند كان يخشى في أول الأمر عواقب التسرع في إظهار نياته الحقيقية إزاء رعاياه الجدد (المورسكيين)، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد في المناطق التي سيطر عليها مؤخراً، ولأن السلاح لم ينـــزع تماماً من أهالي غرناطة وما حولها، ولذلك فإن الضغط ربما يؤدي إلى الثورة ، فالسياسة الأسبانية كانت تخشى دائماً العرب المسلمين المقيمين في البلاد، والذين عرفوا منذ سقوط غرناطة باسم

---

(١٠٣) حتاملة ، التنصير القسري، ص ٦٣.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(105) Temimi , OP. Cit., P. 254.

الموركسيين Los Moriscos [١٠٦]، فقد كانت تدرك مدى أهميتهم الاقتصادية، لأنهم كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء في أسبانيا، نظراً لبراعتهم المشهورة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون، وكانوا من أفضل العناصر التي يمكن أن تضمهم الدولة [١٠٧].

ولكن السياسة الأسبانية كانت طيعة في يد الكنيسة التي كانت تتحين الفرص للقضاء على البقية الباقية من الأندلسيين في أسبانيا مستغلة تعصب الملكة إيزابيلا، وكان هؤلاء المسلمون يمكن أن يسببوا مشاكل كثيرة لا سيما وأنهم يرتبطون منذ أيام مملكة غرناطة بصلات وثيقة مع ثغور المغرب في شمال أفريقيا [١٠٨].

لقد حاول أهل غرناطة التأقلم مع الوضع الجديد على الرغم من المضايقات التي بدأت مع دخول الأسبان المدينة [١٠٩]، ومن هذه المضايقات الضرائب الباهضة وسيطرة النبلاء على مساحات شاسعة من الأراضي والأملاك التي كانت من ضمن أملاك الأندلسيين الذين أصبحوا أتباعاً لهؤلاء السادة الجدد الذين استعملوا أساليب الإرهاب والبطش والتعذيب، ومع ذلك فقد بقي الموركسيون شغلاً شاغلاً للكنيسة وللسياسة الأسبانية، يعدون من الخونة المارقين على الرغم من تنصرهم. وقد ازدادت حالة العرب سوءاً بعد وصول رئيس الكنيسة الأسبانية إليها الكاردينال سيسنيروس، وذلك بدعوة من الملك فرديناند سنة ١٤٩٩ ليترأس الجماعات التبشيرية التي تعمل

---

(١٠٦) وهو تصغير لكلمة Moros أي العرب المسلمين الذين نصروا وظلوا في شبه الجزيرة الإيبيرية.

(١٠٧) عبد الواحد ذنون طه، المصدر السابق، ص ١٥، عبد الله حمادي، المصدر السابق، ص ٥٠.

(١٠٨) عبد الواحد ذنون طه، المصدر السابق، ص ١٦.

(١٠٩) مرت سبع سنوات وأهل غرناطة يحاولون التأقلم مع واقع جديد فرضته سلطات الاحتلال القشتالية، منذ أن رفعت الصليب الفضي فوق قصر الحمراء سنة ١٤٩٢.
عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ١٠٩.

على تنصير المسلمين (١١٠).

وتعد سياسة التعصب هذه – التي نفذها الأسبان برضا الكاثوليكيين – عاملاً رئيسياً أدى إلى إشعال نار الانتفاضة في حي البيازين سنة ١٤٩٩ (١١١)، والتي ترتب عليها نتائج مهمة منها صدور قرار سنة ١٥٠٢ يقضي بتنصير كل من الاندلسيين العرب أو ترحيلهم إلى شمال أفريقيا(١١٢) إن رفضوا ذلك، كما أصدر الملكان أمراً يمنع بموجبه العرب القاطنين خارج حدود مملكة غرناطة من الدخول إليها حتى لا يختلطوا بأهلها، حيث أمر بإقامة فرع لمحاكم التفتيش الأسبانية في غرناطة يكون تابعاً لمحكمة التفتيش في قرطبة ، واستمر هذا الفرع يعمل ضد العرب المتنصرين من سنة ١٥٠٢ إلى سنة ١٥٢٦، حيث تأسست في غرناطة محكمة خاصة بها(١١٣).

---

(١١٠) في السنوات العشر الأولى من الإستيلاء الأسباني على غرناطة، نظمت الكنيسة فرقاً تبشيرية، من رهبان وراهبات، للقيام بنشر المسيحية، ولكن هذه الفرق التبشيرية، وهذه الحملات باءت بالفشل ، فتدخل سيسنيروس، وفرض التنصير القسري، مستعملاً كل وسائل التعذيب، وكل ما لديه من قوة. ينظر:

W. Montgomery Walt, A History of Islamic Spain, Edinburgh 1977, PP. 152-3.

(١١١) للتفاصيل عن انتفاضة البيازين ينظر:

عبد الواحد ذنون طه، المصدر السابق، ص٢٠، حتاملة ، التنصير القسري، ص ٧٥، عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٣٢.

(١١٢) لقد نص المرسوم المذكور على أن واجب أهل قشتالة طرد أعداء الدين المسيحي من مملكتي قشتالة وأرغون، وجميع من لم يتعمدوا بعد الرحيل فلا يبقى ذكر فوق الرابعة عشر ولا أنثى يزيد عمرها على الثالثة عشرة في قشتالة وليون إلا إذا تنصروا، وسمح لهم ببيع أملاكهم وعقاراتهم، ولكن حذر عليهم إخراج الذهب والفضة، فرحل نحو ثلاثمئة ألف منهم توجه إلى المغرب ومصر والشام.

عادل سعيد بشتاوي، المصدر السابق، ص ١١٩.

(١١٣) عبد الواحد ذنون طه ، المصدر السابق، ص٢٠.

وقد أصدرت المحكمة الجديدة في غرناطة – عند نشوئها – منشوراً يبين الأدلة التي يستطيع المسيحي بمساعدتها التعرف على العربي المتنصر إذا ما رجع إلى الإسلام، ونصه: " يعد الموريسكي أو العربي المتنصر مرتداً إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً، أو إن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبلغ عن ذلك. ويجب عليه أن يبلغ عما إذا كان قد رأى، أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين قد مارس بعض العادات الإسلامية ، ومنها: أكل اللحم يوم الجمعة أو الاحتفال بيوم الجمعة كأن يرتدي الشخص ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو أن يستقبل المشرق بوجهه قائلاً باسم الله، أو أن يوثق أرجل الحيوانات قبل ذبحها، أو يرفض أكل لحم الخنزير، أو تلك التي لم تذبح أو ذبحتها إمرأة أو أن يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية أو يعرب عن رغبته في إتباع هذه العادة، أو أن يقسم بأيمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب"(١١٤).

ويقول ليورنت تعليقاً على هذه الوثيقة " من السهل أن نرى بين الأعمال والكلمات التي ذكرت عدة ما قد لا يتردد الكاثوليكي المخلص في عملها أو قولها، يعدها تافهة في ذاتها، ولا يمكن أن تغدو كفراً أو شبهة عليه، ولكن إصدار محكمة التفتيش لهذه الوثيقة وما كان يلاقيه الموريسكييون من الاحتقار في أسبانيا بصفة عامة قد مهد السبيل إلى وقيعة روح البغض والانتقام، وغيرهما من العواطف العنيفة (١١٥).

وبدأت المحكمة بملاحقة من تشك به من المتنصرين العرب بوحشية متناهية فقد كان الموريسكييون يشكلون الغالبية العظمى ممن صادرت المحكمة أملاكهم، وقد شكل هؤلاء رافداً اقتصادياً لعمل محاكم التفتيش، فكانت تقوم بتسجيل ممتلكاتهم وتوعز بمصادرتها، حيث كانت تقوم بإحصاء هذه الممتلكات بين الفينة والأخرى، وقد صدرت سنة ١٥١١ سلسلة من الأوامر الملكية تضمنت أشد الإجراءات تعسفاً بحق

---

(١١٤) مقتبس في : عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، ص ص ٣٨-٣٩.

(١١٥) عنان، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، ص ٤٠.

الموروسكيين [١١٦]. كما أن هناك كثيراً من الأوامر الملكية الأخرى الصادرة ضد الموروسكيين تخص العادات والتقاليد، منها إلغاء الزي التقليدي لهذا الشعب [١١٧].

ونستطيع أن نتوصل إلى حقيقة تاريخية وهي أن السبب الرئيس وراء هذا النشاط العدواني ضد الموروسكيين هو سبب سياسي وليس دينياً فحسب، بل أن هناك أهدافاً سياسية واجتماعية وثقافية، والدليل على ذلك أن الملكة إيزابيلا ماتت وهي توصي: " بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان المسيحي " وتقصد الموروسكيين. وعند قرب أجل الملك فرديناند الكاثوليكي سنة ١٥١٦ أوصى أولاده قائلاً : " عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية، ويقصد بذلك استئصال المسلمين من جذورهم والقضاء على الإسلام [١١٨].

---

(١١٦) التفاصيل ينظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس (٦٤-٨٩٧ هـ/ ٦٨٣-١٤٩٢م) دمشق ١٩٧٨، ص٥٣٩-٥٤٥.

(١١٧) ينظر نص هذه الأوامر في الملحق رقم (٣) من الكتاب ، ص(١٢٦).

(118) Pascual Boronal Y Barrachina , Pbro, Los Moriscos Espanoles Y sa expulsion , Tomoi, Valencia 1907, PP. 116-17.

الخاتمة

الخاتمة :

سعت البابوية منذ بداية العصور الوسطى إلى تكريس سلطانها قوة روحية مهيمنة على الحياة السياسية والاجتماعية في أوروبا الغربية، ولهذا نظرت إلى أية حركة أو فكرة تتعارض مع أفكارها باعتبارها خطراً يهدد مكانتها يجب محقها دون رحمة بتهمة الهرطقة. وفي هذا المجال تعاونت الكنيسة مع السلطات المدنية التي انسجمت مصالحها آنذاك مع فلسفة البابوية، التي تضفي على سلطتها الصبغة الشرعية.

ولكن، مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية، ونمو المدن، وما رافق ذلك من تزايد الوعي الثقافي والفكري الذي بدت ملامحه قوية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نتيجة عوامل معروفة، وجدت الكنيسة نفسها في حاجة إلى تطوير أساليب مواجهتها للحركات المناهضة وإجهاضها في وقت مبكر. فقد أثبتت تجاربها السابقة، بأن ترك معالجة الأمر في أيدي الأساقفة المحليين، تعاونهم السلطة المدنية، لم يعد مجدياً في مواجهة زخم حركات المعارضة، الأمر الذي دفع البابا غريغوري التاسع في ١٢٣٣ إلى إنشاء هيئة متخصصة، يكرس أعضاؤها، وجلهم من الأخويتين: الفرانسيسكان والدومنيكان، أنفسهم، لكشف ومعاقبة من يتهم بالهرطقة. وهذه الهيئة هي محكمة التفتيش المرتبطة بالبابوية، التي انتشرت في أرجاء مختلفة من أوروبا الغربية.

في أسبانيا اختلف الأمر، فمحكمة التفتيش الأسبانية ارتبطت بالتاج لا بالبابوية، فأصبحت منذ تأسيسها أداة رهيبة في يد الملكين فرديناند وايزابيلا لتحقيق طموحهما في حكم دولة موحدة تخضع لهما على نحو مطلق، ويتم هذا بسيادة المذهب الكاثوليكي على جميع رعاياها انطلاقاً من شعار " إن الدين للدولة هو بمثابة الدم للإنسان، لذا يتحتم أن يكون الدم نقياً لضمان خلود الدولة " (1). لذا فإن كل خارج عن إطار الكنيسة أو مشتبه بعدم إيمانه المطلق بها، غريب ينبغي استئصاله، مهما بلغ من

---

(1) Clarke , Op. Cit . P. 360.

علو المنزلة الاجتماعية والسياسة و الاقتصادية. وبذلك تحولت المحكمة إلى سلاح لتكريس سلطة البلاط في مواجهة تفاقم نفوذ النبلاء وميولهم الاستقلالية. فما أن حصل العاهلان على التفويض من البابا سكتوس الرابع بتخويلهما تأسيس محكمة التفتيش مرتبطة بهما، حتى باشرت أعمالها بنشاط محموم أختطه المفتش الأول توركيمادا. فخلال ترؤسه لها مدة ثمانية عشر عاماً بلغت قساوة إجراءاتها ووحشيتها، التي طالت أساساً اليهود والعرب، درجة دفعت البابا الذي سمح بتأسيسها إلى الاحتجاج على إجراءاتها في محاولة لكبح أساليبها المميتة[٢].

ولم يعبأ المفتشون الذين يستمدون سلطاتهم من الملك، باحتجاجات الحبر الأعظم الذي وجد نفسه مجبراً على التخلي عن حق الاستئناف، والتظلم إليه، وواصلوا أساليبهم اللاإنسانية ضد الهراطقة. وهكذا ساعدت محكمة التفتيش الأسبانية على جعل الكنيسة في أسبانيا تتبع التاج مع إرتباطها الروحي بروما فكرست سلطة الملك المطلقة في البلاد.

ومع سقوط غرناطة، آخر المعاقل العربية في ١٤٩٢، تصاعدت وتائر الاضطهاد والعنف الدموي، مما أجبر مئات الألوف من أنشط فئات المجتمع اقتصادياً وعلمياً على الفرار، وأدين آلاف آخرون توزعتهم المحارق والزنزانات والمطامير. الأمر الذي أودي بأسبانيا إلى هاوية التخلف مقارنة بدول أوروبا الغربية الأخرى.

---

(٢) ورد في رسالة البابا إلى إيزابيلا المؤرخة في ٢٣ شباط ١٤٨٣ " أن الاندفاع المحموم ضد المارانوس والموركسيين يحركه الطمع الدنيوي لا السماوي "

Quoted in : Eragang , OP. Cit., P. 213.

الملاحق

ملحق رقم (١)

Edjict of Faith

قانون الإيمان

نعلن نحن الدكتور أندريس دي بالاسيو Ander de Palacio ، المفتش عن الهرطقة والممارسات الخاصة بالردة في مدينة ومملكة بلنسية، إلى كافة المسيحيين، رجالاً ونساءً، ورجال الكنيسة رهباناً وقساوسة ومن كل الدرجات والمراتب، الذين هم مدركون القوانين الأخرى والقرارات الصادرة عن مفتشينا المبجلين أسلافنا حيث أمروهم بالمثول بين أيديهم، ضمن مدة محدودة، والإعلان عمن قالوا أو فعلوا شيئاً ضد الدين الكاثوليكي المقدس سواء أكانوا أمواتاً أم على قيد الحياة، وطبقوا دين موسى أو محمد، أو مارسوا شعائرهم، أو ارتكبوا جرائم الهرطقة، ومارسوا شعائرهم في أيام الجمع والسبت وقاموا بتغيير شراشف السرير أو ارتدوا ملابس أفضل في أيام السبت عن بقية الأيام وقاموا يوم الجمعة بإعداد الطعام ليوم السبت في مقلاة صغيرة على نار صغيرة والذين لا يعملون في أمسيات الجمعة والسبت كما في بقية الأيام والذين يشعلون المصابيح النظيفة في أمسيات الجمعة، ويضعون شراشف نظيفة للأسرة وفوط نظيفة على المائدة ويحتفلون باحتفال الخبز غير المخمر ويأكلون خبزاً غير مختمر والأعشاب المرة، ويصومون حيث لا يأكلون طوال اليوم إلا في المساء وبعد ظهور النجوم، ويحتفلون بيوم الملكة إيستر ويرددون الصلوات وفقاً لشريعة موسى حيث يقفون بمواجهة الجدار ويتأرجحون إلى الأمام و الوراء، ويقدمون المال لشراء الزيت للمعبد اليهودي أو أي أماكن سرية أخرى للعبادة والذين يذبحون الحيوانات وفقاً للشريعة اليهودية، ويمتنعون عن تناول الخراف أو أي حيوان آخر له أظلاف. والذين لا يأكلون لحم الخنزير والأرانب والأسماك التي ليس فيها حراشف، والذين يغسلون

رؤوسهم ويدهنوها بزيت العذراء وفقاً للعرف اليهودي، والذين لا يأكلون اللحم في بيت الحزن، والذين قاموا بالإختتان أو يعرفون عن قيام الآخرين بالإختتان، والذين يقولون بأن شريعة موسى ستؤدي إلى خلاصهم، ويقولون أن ربنا يسوع المسيح هو ليس المسيح الحقيقي الموعود في الكتب المقدسة، وأنه ليس الرب الحقيقي، وليس هو أبناً للرب، والذين يفكرون أن يسوع قد مات لخلاص البشرية، وينكرون قيامته وصعوده للسماء، ويقولون إن مريم العذراء ليست أماً للرب ولم تكن عذراء لا قبل ميلاد المسيح ولا بعده، والذين يؤكدون العديد من الأخطاء الهرطقية الأخرى، والذين يقولون بأن ما اعترفوا به أمام المفتشين لم يكن حقيقياً، والذين يتفوهون بأقوال مشينة عن ديننا الكاثوليكي وضد موظفي محاكم التفتيش، أو الذين يؤثرون في أي شخص ربما كان قد انجذب إلى الكاثوليكية للامتناع عن الاهتداء إليها والذين يقاومون التعميد، ويقولون أن الرب لا يمكن أن يكون كلي الوجود، أو أي راهب يحمل هذه الفكرة الملعونة، والذي يتلو القداس الديني دون ذكر الكلمات المقدسة، والذين يؤمنون بأن شريعة محمد وشعائرهم ستؤدي إلى خلاصهم، والذين يؤكدون بأن الحياة ما هي إلا ميلاد وموت وأنه ليس هناك جنة ونار، والذين يقولون بأن ممارسة الربا ليس إثماً، وإذا ما تزوج أي رجل ما تزال زوجته على قيد الحياة أو تزوجت أي إمرأة أثناء حياة زوجها، أو الأشخاص الذين يمارسون العادات اليهودية ويسمون أولادهم في اليوم السابع من ميلادهم، ويضعون الذهب والفضة على المائدة، وإذا ما علموا أنه حينما يموت أحدهم فإنهم يضعون قدحاً من الماء وشمعة مضاءة وبعض المناديل حيث مات ذلك الشخص ولا يدخلون لذلك المكان لعدة أيام، وإذا ما عرفوا عن مساعي أي يهودي أو مهتدي للوعظ بشريعة موسى وهداية الآخرين إلى هذه العقيدة وإلقاء المحاضرات عنها وتقديم المعلومات عن تواريخ الأعياد وأيام الصيام وتعاليم الصلاة اليهودية أو إقناع أي شخص بأن يتحول إلى اليهودية، أو مسيحياً ينقل عادات اليهود، أو الذين يقومون بعد العشاء أو الغداء بمباركة النبيذ ويمررونه لكل الجالسين

على المائدة، وإذا ما عرفوا عن تجمع أصحاب المنزل لممارسة الطقوس الدينية اليهودية، والذين يضعون أيديهم على رأس المسافر دون رسم إشارة الصليب، أو الذين يقولون أن يسوع المسيح لن يأتي وأن إيليا سيأتي لأخذهم إلى أرض الميعاد ليخلصهم من الأسر الذي يعيشون فيه، عسى أن تفشل خططهم وأن تكون أيامهم مليئة بالشر، عسى أن تترمل نساءهم ويصبح أبناؤهم أيتاماً ، عسى أن يصبح أبناؤهم فقراء، ولا يجدون من يساعدهم وعسى أن يطردوا من منازلهم وتغتصب أملاكهم وأن لا يرحمهم أحد وأن يتدمر أبناؤهم ويصبحوا منبوذين وأن تظل شرورهم حاضرة في الذاكرة السماوية، عسى أن يهلكهم أعداؤهم ويجردوهم من كل ما يملكونه في العالم وأن يتجولوا من باب لآخر دون الحصول على العون والراحة، عسى أن تنقلب دعواهم إلى لعنات وأن تلعن كل الأطعمة التي يأكلونها والمنازل التي يسكنونها والملابس التي يرتدونها والحيوانات التي يركبونها والأسرة التي ينامون عليها والموائد التي يأكلون عليها. ملعونين مثل كل شياطين الجحيم وأن يكون الشياطين سادة لهم ويصاحبونهم ليل نهار، آمين.

وإذا ما قام أي شخص بما ذكر أعلاه وأصر على فعله فإنه سيعتبر مهرطقا وسيعاقب بطريقة معاقبة الهراطقة نفسها أو المشكوك بكونهم هراطقة.

صدر في آذار من العام ١٥١٢.

فقرة :

(ليس هناك فائدة من الاعتراف بسبب التخلص التام من حكم الحرمان الكنسي الذي قد يخضع له المهرطق منذ زمن ارتكاب الجريمة).

فقرة:

(كل أولئك الذين يعرفون أي شيء عن الأمور المذكورة في هذا القانون أو عن هراطقة آخرين ولا يتقدمون للإبلاغ عنهم سيحرمون كنسياً ولن يغفر لهم الكهنة اعترافاتهم)[٣]

المفتش الدكتور بالاسيو

(3) Quoted in : Roth , The Spanish Inquisition , PP. 70-83.

ملحق رقم (٢)

Last Century of the jewish Centery in Spanish

نص طرد اليهود

" هناك في مملكتنا العديد من المسيحيين الصالحين الذين انحرفوا عن الدين الكاثوليكي المقدس، ويتوضح هذا في تأثر المسيحيين باليهود خلال اتصالاتهم بهم، ورغبة منا في القضاء على هذا الإثم، قررت هيئة محكمة التفتيش التي اجتمعت في طليطلة في ١٤٨٠ عزل اليهود عن كل المدن، وتخصيص أماكن إقامة خاصة بهم. وقد حكمت محكمة التفتيش منذ تأسيسها قبل اثني عشر عاماً على الكثير من المذنبين وفقاً لتوصيات المحققين، وقد تبين الأذى الكبير الحاصل للمسيحيين بسبب اتصالهم باليهود الذين يسعون إلى تضليلهم ودفعهم لاعتناق ديانتهم الملعونة، كما يسعى اليهود إلى تضليل المورسكيين وأبنائهم، حيث يوزعون كتب الصلاة عليهم، ويخبرونهم عن أيام الصيام، ويجلبون لهم الخبز والعصير في عيد الفصح، ويبيعون لهم الأطعمة التي يتناولونها، ويحرمون عليهم ما يمتنعون عنه، ويحثون على ممارسة شعائر الدين اليهودي. لذا توصلنا إلى الاستنتاج بأن الوسائل الفاعلة لقمع هذه الأفعال الشريرة ، هي منع الاتصال بهم كلياً، وذلك بطرد كافة اليهود من حدود مملكتنا الموحدة، حيث لم يؤد إخراجهم من مدن الأندلس إلى توقفهم عن هذه الشرور. ولهذا السبب، فقد قررنا أن نأمر اليهود رجالاً ونساءً بمغادرة المملكة وعدم السماح لهم بالعودة بأية صورة كانت. إننا نأمر كل اليهود رجالاً ونساءً من كل الأعمار بالمغادرة قبل نهاية تموز من هذا العام، وإن لم ينفذوا الأمر، أو إذا تم العثور عليهم في أي مكان، فسيتم الحكم عليهم بالموت، وتصادر أملاكهم دون أية محاكمة، ونؤكد أنه مع نهاية تموز سيتحمل أي مواطن في مملكتنا يأوي أياً من اليهود، تبعة تصرفه، وستصادر أملاكه وتحول إلى خزينة المحكمة "(٤)

---

(4) Quoted in: Simon Dubnov, History of the jews, Vol, III, New York 1969, P. 335.

ملحق رقم (٣)

(مراسيم أصدرتها محكمة التفتيش تخص الموريسكيين)

١. (يمنع منعاً باتاً، قراءة الكتب العربية كافة بما فيها الطبية والدينية).
صادر بتاريخ ١٥١١/٦/٢.

٢. (على كافة المورسكيين تقسيم الحاصلات والميراث على أساس القوانين السائدة في هذه المملكة وتخصيص جزء من ريع مزارعهم إلى التاج الأسباني).
صادر بتاريخ ١٥١١/٦/٢.

٣. (يجري زواج المورسكيين وفق شرائع الدين المسيحي)
صادر بتاريخ ١٥١١/٦/٢٠.

٤. (يجب على المورسكيين أن يرتدوا زي المسيحيين التقليدين ويحرم على الخياطين خياطة أي زي آخر للمورسكيين).
صادر بتاريخ ١٥١٢/١٢/١٢.

٥. (على كافة المريسكيات في المملكة أن يكشفن عن وجوههن وأن لا يضعن الحجاب وأن يرتدين زي المسيحيات نفسه).
صادر بتاريخ ١٥١٣/٣/٢٩.

٦. (على جميع الموريسكين : رجالاً ونساءً الامتناع عن الاستحمام قبل القداس أو بعده).
صادر بتاريخ ١٥١٣/١٢/٢٠.(٥)

(5) Quoted in : Temimi, Op. Cit, PP. 258-59.

المصادر والمراجع

المصادر العربية والمعربة:

- أحمد شلبي، مقارنة الأديان (المسيحية)، ط٣، مصر ١٩٦٧.
- اسحق عبيد، محاكم التفتيش وتطورها، ط٣، مصر ١٩٧٨.
- دورثي لودر، أسبانا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فؤاده، مصر ١٩٦٥.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى الأوروبية، جـ١، ط٦، مصر ١٩٧٥.
- س- كولان، الأندلس، ط١، بيروت ١٩٨٠.
- عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣.
- عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ط١، مصر ١٩٥٨.
- عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حت سقوط غرناطة (٧١١-١٤٩٢)، ط١، بغداد ١٩٧٦.
- عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، تاريخ المسلمين في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، مصر (بلا).
- عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة ١٩٦٩.
- عبد الفتاح مقلد، كيف ضاع الإسلام في الأندلس بعد ثمانية قرون. بغداد ١٩٩٣.
- عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية(٤٧٦-١٥٠٠)، بيروت ١٩٦٧.
- عبد الله حمادي ، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس ١٤٩٢-١٦١٦، الجزائر ١٩٨٩.

- عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد ١٩٨٨.
- عبد الوهاب محمد المسيري، الأيدولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، القسم الأول، الكويت، عالم المعرفة ١٩٨٢.
- ــــــــ ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مصر ١٩٧٥.
- علي أومليل، في شرعية الاختلاف ، ط٣، بيروت ١٩٩٣.
- علي مظهر ، محاكم التفتيش بأسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس المفقود(الأندلس)، مصر ١٩٤٧.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط٤، مطبعة الحلبي ١٩٦٤.
- لويس شيخو اليسوعي، أسرار الماسونية، مصر ١٩٦٥.
- د. محمد بحر عبد المجيد، اليهود في الأندلس، القاهرة ١٩٧٠.
- محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط٤، القاهرة ١٩٨٣.
- ــــــــ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط١. مصر ١٩٤١.
- ــــــــ، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، ط١، مصر ١٩٣٠.
- محمد علي الزغبي، حقيقة الماسونية، بيروت ١٩٧٤.
- محمد علي السيد قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، القاهرة ١٩٨٥.
- محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقيا (٦٤-٨٩٧هـ / ٦٨٣-١٤٩٢ م)، دمشق ١٩٧٨.
- محمد عبدة حتاملة، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان ١٩٩٦.

- ــــــــــــــــ، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨، ط١، عمان ١٩٨٢.
- ــــــــــــــــ الأندلس ، التاريخ والحضارة والمحنة، عمان ٢٠٠٠.
- ــــــــــــــــ جيل المولدين في المغرب والأندلس دورهم في الفتح وأثرهم في الحياة العامة عمان ٢٠٠٣.
- ــــــــــــــــالاعتداءات الافرنجية الصليبية على ديار العرب في الأندلس والمشرق وحرب متواصلة على الإسلام عمان ٢٠٠١.
- ــــــــــــــــ، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان ١٩٧٧.
- الموسوعة العربية الميسرة ، ج٢، بيروت ١٩٨٠.
- الموسوعة اليهودية، المجلد الثاني ، بغداد ١٩٩٠.

البحوث العربية :

- شاهين مكاريوس،(جان دارك) ، مجلة اللطائف، العدد الأول، القاهرة ١٨٨٦.
- عبد العظيم رمضان، (محاكم التفتيش أسوأ استخدام لاسم الله) ، مجلة العربي، العدد ٢٥٨، الكويت ١٩٨٠.
- لويس شيخو اليسوعي،(الكنيسة الكاثوليكية بإزاء ديوان التفتيش) ، مجلة المشرق، السنة ٢١، بيروت ١٩٣٢.
- محمد عبدة حتاملة، (ثورة المجاهد المورسكي المنصور في عهد الملك شارل "١٥١٧-١٥٥٦") ، المغربية التاريخية ، العدد ٦٥، ١٩٩٢.

الكتب الأجنبية:

- Alvaro , huerga , Alumbradose Inquisition en el siglo XVI, Universitiaria Espanola 1992.
- Aneuman , Abraham , The jews in Spain , Vol . 1. America 1944.
- Arenal , Carica, Los Moriscos, Madrid 1973.
- Atkinson , C. William , AHistory of Spain and Portugal, London 1960.
- Azcona , I. De, Isabel La Catolica , Madrid 1964.
- Baer , Yitzhak , History of the jews in Christian Spain , Vol. I, U.S.A 1966.
- Barrachina , Pascual Boronaty , Los Moriscos Esapanoles Y sa expulsion , tom I, Valencia 1907.
- Bury , j., M.A. el, Vol. III, Paris 1936.
- Chejne , Anwar G., Histori Ade Espana Muslmana , Madrid 1980.
- Clarke , H. Butler, " The Catholic Kings" in : The Cambridge Modern History, Vol. I, The Renaissance , Cambridge 1934.
- Conde, Dem. Joseph, Histoire De Ladomination Des Arabes En Espagne, Paris 1825.

- Creen , V.H.A., Renaissance and Reformation, London 1970.
- Davies, R. Yrevor, The Golden Century of Spain (1507-1621),New York 1961.
- Dedieu , Hean Pierre, Lainquisicon, Madrid 1993.
- Delatorre , A, Politica Mediterrana , Los Reyes Cotolicos, Madrid 1944.
- Dozy , R. Gistory Des Msulmans Despagne, Vol . III, Leyde 1933.
- Dsbger, Franz Lan, A History of jews Art. America 1914.
- Dubnov, Simon, History of the jows, Vol .III, New York 1969.
- Eban, Abba, My People , The Story of the jews, London 1969.
- Editores, Central, Morish Aspain, Italy 1963.
- Elliott, j.H., Imperial Spain , London 1919.
- Erass , F.H., ed, The Dictionary of the Christian Church , London 1963.
- Ergang , E., Europe From the Renaissance to Water Loo, New Yor; 1939.
- Finucane , R. C., The Inquisition , Vol .7, London 1985.

- Foriescue, Sir hhon , Deleudibus Leyum Angliae, London 1913.
- Grayzel, Solomon, History of the jews, (New ed), New York 1968.
- Gue ,j.M., Doussina, Politica Inquisitional de fornando el catoloca, Madrid 1944.
- Hayes, Calton j. H., Historia Politicay Cultural de la Europa Moderana, Vol. I, Barcelona 1946.
- Helps, Sir Arthur , The Spanish Conquest in America , Vol . I, London 1900.
- Hoffman; George W. ;Getzel Pearcy, Spain in the World, London 1962.
- Karmen , Henry, Inquisition Espanola, Barcelona 1970.
- Lane – Poole, Stanly, The Story of the Nations, London 1912.
- Lapeyrem H, Geographie de L`espagne Morisque, Paris 1959.
- Lavallee ,Par M. Joseph, Espabne Depuis Le`xpulsion Des maurrs jusqu`a L`annee 1946, Paris 1958.
- Lea, henry Charles, History of the Inquisitionof the Middle Ages,Vol. 2, New York 1958.
- __________, The Moriscos of Spain , New York 1968.

- Lerner, Robert, The Heresy of the Free Spirit in the Later Middle Ages, London 1972.
- Kiorent , j. A, Histoire Gritique de Les Lin`question Despagn, Tom4, Paris 1818.
- Lynch, jhon , Spain Under the Habsburgs, Oxford 1994.
- Maisonneuve, Henri, Etuds Sur Les orgtnes DL`Inquition, Paris 1966.
- Mariejol, Jean Hippolyte, The Spain of Ferdinand and Isabella , New Jersey 1961.
- Marrles ,M. De , Histoirs Del`espange par Les Arabs , Tours 1855.
- Munro , Dana C. and RT. Sontag , The Middle Ages 395-1500, London (Revised 1928).
- Palmer , R.R., A History of the Modern World , New York 1957.
- Parry " Colonial Development and Internationalism outside Europe, America" : The Cambridge Modern History, Vol .III.
- Pena, Nicolau Eymerich Francisco , Lemanuel Des Inqisteur, Paris 1973.
- Pirenne, Henry , A History of Europe From the Invation to the 16^{th} . Century , London 1930.

- Potter , G.R., The New Cambridge Modern History , New York 1961.
- Prescott, William H., History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1962.
- Rotana (P) , Fernandez de, Cisneres su Siglo, Madrid 1929.
- Rivilla , Sanehez, Eiconsejo de Inquisicion (1483-1700), Madrid 1984.
- Robinson , hames Harvey , Medieval and Modern times, New York 1931.
- Rodriguez , juan , Castellano, Caridad Rodriyuez Castellano, Historia de Espona , New York 1933.
- Rodriguez , Juan, Historia de Espana, Oxford University 1939.
- Roehm, A, Wesley (and Others) , History of Mankind, Massachusetts 1973.
- Romain , Georges , L`Inquistion , Paris 1913.
- Roth , Cecil , A History of the Marranos , U.S.A. 1932.
- ______, The Spanish Inquisition, London 1964.
- Rhys, Ernest, History of the jews, Vol .2, London 1933.
- Schafer. W., Geschichte Des spans Chen Portestaatismus and der Inquisition, Vol. 3, Gutersloh 1902.

- Siculo , Lucio Marineo, Vidoh chos de Los Reyes Catolicos, Madrid 1882.
- Siliocortes, C., Isabealla Catolica fun dadora de Espana, Valladolid 1938.
- Soler m A. Gtmenz, Fernando el Catolico, Madrid 1941.
- Temimi, Abdel jelilm Religion Zdentitet Saurcw Documentai Res Sur Les Moriques Andolous,Tunis 1984.
- Terrassa, Henry, Islam De Spagne , Paris 1958.
- Turberville , A.S., The Spanish Inquisition , London 1949.
- Turner , Edward Raymond , Europe 1450-1789, New York 1933.
- Viardot , Lous, Arabes Etdes Mores De`Spagne , Vol.1m Paris 1851.
- Walt m W. Montgomery m A History of Islamic Spainm Edinburgh 1977.
- Weber ,Max, Protestant Ethics Spirit of Capitalism ,New York 1968.
- Williams , Henry Smith , The Historians, History of the World, New Yoek 1904.
- (W), Stakie , Leaspana de Cisneros , Barcelona 1943.

الموسوعات الأجنبية :

- Dicconario, Enciclopdia Salva TT.q, Barcelona 1972.
- Encyclopedia judaica, Vol. 15, jerusa lem 1972.
- Encyclopedia Britannca Vol. 22, Chicago 1905.
- Grand Larouss Encyclopedique, Tom Sixieme , Paris 1962.
- Meyers Neues Lexikon , Vol . 11, Leipzig 1973.

تنفيذ :

معتصم باغي

خلوي : 079/5768932

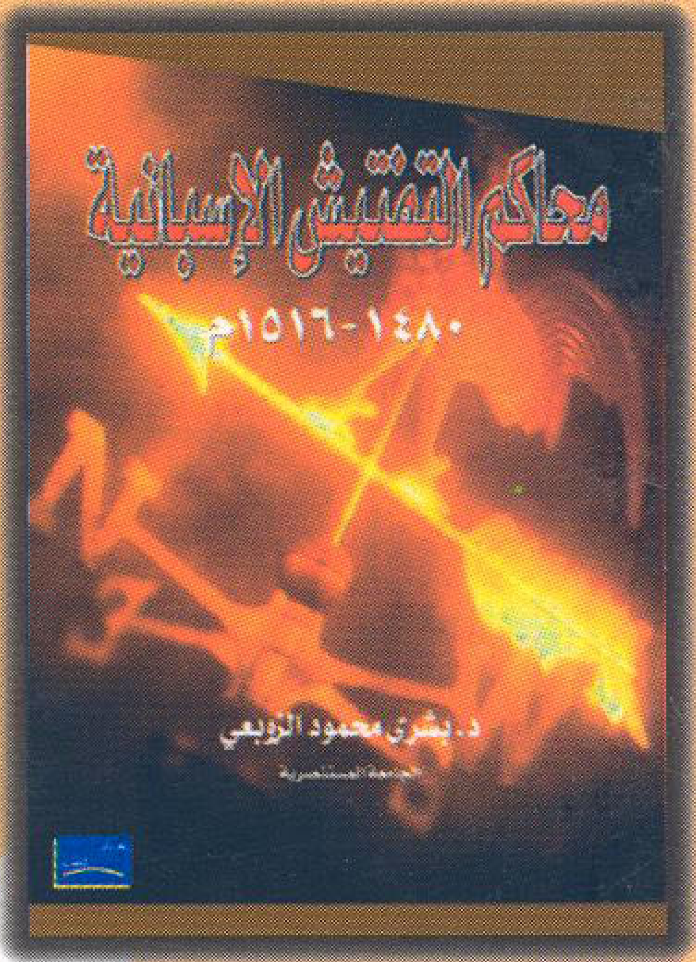

التاريخ يعيد نفسه في فلسطين

في قلب النشر العربي

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس: ٥٣٣١٢٨٩ -٦-٩٦٢+ ص.ب ١١٧٠ عمان ١١٩٤١ الأردن

-mail: zahranco@maktoob.com www.darzahran.net

خطوة
+962-6-5331933